الدِّين والدَّولة

أ. د. عبد العزيز بايندر
عضو هيئة التَّدريس في كلية الشَّريعة في جامعة اسطنبول

وقف السليمانية

التَّرجمة: د. محمد روزي باقي
المُراجعة والتَّحرير: جمال أحمد نجم

اسطنبول 2014 م

تمهيد :

نحنُ مَدينون للهِ تعالى بكلِّ ما نملكُ، ولا نملكُ سِوى ما آتانا؛ قال تعالى «**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**».[1] وكلُّ إنسانٍ يُؤمنُ بذلك، ويُعبّرُ عن إيمانه بطريقةٍ ما، ولا يُستَثنى من هذا الوثنيُّون الذين يعبدون الأصنامَ لتُقرّبَهم إلى اللهِ زُلفى، فهم يعتبرون الأصنامَ رموزاً لبعض الأشخاص المعنويّين القريبين من اللهِ تعالى، وهي عقيدةٌ باطلةٌ لا يقبلُها العقلُ، لأنَّها تقومُ على الأساطير ولا تستندُ على الأدلَّة الصَّحيحة، وهي وما شابَهَها من عقائدَ شِركٌ يجبُ تجنُّبُه.

إنَّ الملحدين الذينَ يُعرَفون اليوم بأنَّهم لا يؤمنون بوجودِ إلهٍ قطُّ، هُم في الحقيقةِ يُؤمنون بوجود الله، وتسميتُهم إيَّاه بـ "الطَّبيعة أو إله السَّماء أو بأيِّ شيءٍ آخَرَ" لا ينفي أنَّهم يُؤمنون بوجوده، إذْ لا يُمكنُ إنكارُ وجودِ الله الذي خَلَقَ الموجوداتِ كلَّها وهو الحاكمُ الوحيدُ لهذا الكون.

إذاً فمثالُ مَنْ يُنكرُ وجودَ الله تعالى يُشبهُ أنْ يُنكرَ الإنسانُ أباه، فالملحِدُ يلجأُ إلى الله إذا ألجأتْه الضَّرورةُ وتراكمتْ عليه المشكلاتُ كما يعودُ الإبنُ الهاربُ من أبيه إليه عند تراكم مشقَّات الحياة على رأسه.

فالملحِدون يُريدون أن يُعطيَهم اللهُ كلَّ ما يُريدون، لكنَّهم لا يقبلون منه أمراً أو نهياً.

فريقٌ آخرُ من النَّاس يقبلون أنْ يكونَ اللهُ مُشرّعاً، ولكنَّهم يذهبون إلى تصنيف أوامره ونواهيه، فيَقبَلون منها ما وافَقَ هواهم ويرفضون ما يُخالفُه، فهم أشبهُ ما يكونون بالشَّيطان الذي رَفَضَ أمراً من أوامرِ اللهِ تعالى فأصبَحَ مطروداً، مع أنَّه كانَ يُؤمنُ بالله وباليوم الآخر ويُؤمنُ بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، ولكنَّ عدَمَ موافقتِه على أمرٍ واحدٍ من أوامر الله تعالى جعَلَه مطروداً ملعوناً.

مِنَ المعلومِ أنَّ العقيدةَ تُؤثِّرُ في جميع شُؤون الإنسان، أي أنَّ أثَرَ العقيدةِ يظهرُ فيه سواءً في حياته الخاصَّة أو الاجتماعيَّة، والعقيدةُ قابلةٌ للتَّغيير، أي أنَّ الإنسانَ يُمكنُ أنْ يُغيّرَ عقيدتَه بقَبول دينٍ جديدٍ مثلاً، ولكنَّه لا يستطيعُ مع ذلك أنْ يخرجَ من البيئة التي عَاشَ فيها.

ومن أجلِ ذلكَ على كلِّ مُجتمعٍ أن يكونَ مُستعدَّاً لِأنْ يحتضنَ أصحابَ العقائد المختلفة في بيئةٍ واحدةٍ.

---

[1] البقرة، 2 / 255

وفي العصرِ الذي تطوَّرتْ فيه وسائِلُ النَّقل والاتصالات، وكثُرَتْ فيه الهجرةُ، وجدْنَا أنفسَنا مُضطرّين لقبول العيش مع أصحاب العقائدِ الأُخرى، لأنَّ المهاجِرَ يتركُ البيئةَ التي عاشَ فيها، ولكنَّه يُهاجِرُ بعقيدته إلى مُجتمعٍ جديدٍ، والمنطقُ السَّليمُ يمنعُ إكراهَ الآخرين لقبول عقيدةٍ ما.

لكنَّ المشكلاتِ تبرزُ بسببِ ابتعادِ كثيرٍ من النَّاس عن المنطق، لذا تكثُرُ الاضطراباتُ في البيئات التي يعيشُ فيها أصحابُ العقائد المختلفة، وللخروج من حالة الاحتقان التي تحكُمُ غالباً العلاقاتِ بين أولئك فلا بُدَّ أنْ يسودَ في المجتمع الرأيُ الصَّحيحُ الموافقُ للشَّرع وللمنطق، وهو يتمثَّلُ في توفير المناخ المناسِبِ لأفرادِ المجتمع بما يسمحُ لهم بأنْ يعيشوا أحراراً حسبَ مُعتقداتِهم.

إنَّ من المؤسف حقَّاً أن نرى أصحابَ النُّفوذ والصَّدارة في المجتمعات يحرُصون على أن تكونَ القوَّةُ هي المهيمنةُ في مجتمعاتهم، فهم لا يُعيرون أيَّ أهميَّةٍ لاتِّباع الرَّأي الصَّحيح، وهذا ممَّا يُؤدِّي إلى الظُّلم والاضطهاد.

والذي يُريدُ أن تكونَ القوَّةُ هي المهيمنةُ بدلاً من الرَّأي الصَّحيح إنَّما يُريدُ في الحقيقة أنْ يكونَ النَّاسُ عباداً له، فيلجأُ البعضُ من أولئك السَّاعين إلى الهيمنة إلى قوَّتِهمُ الماديَّةِ والبعضُ منهم إلى سُلطة الدَّولة، والبعضُ الآخَرُ يجعلُ من الدِّين وسيلةً لنيل مُراده، ومن أجل ذلك كانتْ قضيَّةُ الحريَّة _على مرِّ التَّاريخ_ منْ أهمِّ القضايا البشريَّة.

إنَّ كثيراً ممَّن قاموا بالنِّضال من أجل الحُرِّيَّة حاولوا استعبادَ الآخرين عندما صاروا أصحابَ نفوذٍ وسُلطةٍ، وهذه حقيقةٌ يُدركُها كثيرٌ من النَّاس.

إنَّ الدِّيانةَ السَّماويَّةَ ترفضُ الإكراهَ في أمور الدِّين؛ ولا يصحُّ الإلجاءُ والقهرُ بعد أن بانتِ الأدلَّةُ والآياتُ الواضحةُ الدَّالَّةُ على صِدق النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يُبلِّغُه عن ربِّه، فمَنْ شاءَ فليُؤمنْ ومَنْ شاءَ فليكفُرْ، ومن أجل ذلك جاهَدَ الأنبياءُ جميعاً، وكانَ هدفُهم الأساسيُّ هو إنقاذُ الأُمم والأفراد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضِيق الدُّنيا إلى سِعَة الآخرة، وتلك هي المهمَّةُ المشتركةُ لجميع الأنبياء والمرسلين.

العبادةُ في اللُّغة تعني العبوديَّةَ المطلَقة، أي الانقيادَ الكاملَ المطلق، وعلى هذا فالانقيادُ المطلَقُ لغيرِ الله تعالى عبادةٌ له، ولكنَّ الذين يُريدون جعلَ الدِّين وسيلةً من وسائل القهر والجبر يُبعدونه أوَّلاً عن سُنن الأنبياء ثُمَّ يجعلونَه مُبهَماً، فيستولون بذلك على أُمور الدِّين بإنشاءِ مُؤسَّساتٍ دينيَّةٍ رسميَّةٍ مع أنَّ الدِّين في الحقيقة هو أمرٌ فرديٌّ !

وتتعلَّقُ بسبب أفعالهم تلك عمليَّةُ قبول الدِّين أو رفضِه بمراسمَ رسميَّةٍ، كالحال في الدِّيانة المسيحيَّةِ، حيث تحتَكرُ الكنيسةُ الدِّينَ على اعتبارِ أنَّ لها الحقَّ الحصريَّ في إدخال النَّاس إلى الدِّين أو إخراجِهم منه، وبذلك حقَّقت تلك المؤسَّساتُ آمالَها في السَّيطرةِ على الدَّولة وإدارتِها باسم الله، فاستغلَّ القائمون على تلك المؤسَّسات كلَّ إمكانيَّات الدَّولة، وتحلَّلوا من المسؤوليَّة تجاهَ النَّاس تاركين البحثَ عن حلولٍ للمُشكلات الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّة من فقرٍ وظُلمٍ وقهرٍ؛ قائلين: هذا ممَّا قدَّرَ اللهُ عليكم !

إنَّهم بقولهم هذا تركوا المسؤوليَّةَ وهربوا من تحمُّلها، لأنَّه لا يُمكنُ لأحدٍ أن يُحاسبَ اللهَ، فهو سبحانه لا يُسأل عمَّا يفعلُ وهُم يُسألون.

وهكذا النِّظامُ في الدَّولة الثيوقراطيَّة، فالثيوقراطيَّةُ تعني دخولَ الدَّولة تحتَ أمرِ الكنيسة،كما توجَدُ التَّنظيماتُ المشابِهةُ لها في الدِّيانة المسيحيَّة، وهو أمرٌ مرفوضٌ قطعيًّا، لذا كان الكفاحُ ضدَّ الثِّيوقراطيَّة كفاحاً مُحِقًّا، وقد سُمِّيَ هذا الكفاحُ بـ "العِلمانيَّة".

إنَّ العِلمانيَّة التي كانت رمزَ الثَّورة ضدَّ الثيوقراطيَّة أصبحتْ من وسائل القهر والاضطهاد والمحاسبةِ على المعتقدات، لذلك أصبَحَ مَنْ يُريدُ استعبادَ النَّاس وسحبَ الحُرِّيَّةِ منهم يعتمدُ إمَّا على الدِّين أي الثِّيوقراطيَّة وإمَّا على العلمانيَّة.

إنَّ الظُّروفَ الخاصَّةَ التي أدَّتْ إلى ظهور الحُكم الكنسيّ (الثيوقراطيّة) في الغرب ومن ثمَّ الثَّورة العلمانيَّة لم تتوفَّرْ في العالم الإسلاميّ، وكان وجودُ القُرآن الكريم مانعاً دون ذلك لأنَّه وَضَعَ المبادئَ المثاليَّة للعلاقات بين الدِّين والدَّولة، وهي مبادئُ يقبلُها كلُّ مَنْ تجنَّبَ التصرُّفاتِ العاطفيَّةَ والأحكامَ المسبقةَ.

لقد بحثنا في هذه الدِّراسة الهيكلَ الذي تجبُ أن تُبنى عليه العلاقةُ بين الدِّين والدَّولة على ضوء القرآن الكريم، وهو كتابُ الله الأخير الذي وَصَلَ إلينا دون أن يعتريَه تغييرٌ أو تبديلٌ، وسيبقى هكذا حتَّى تقومَ السَّاعة، ثمَّ وقفنا على موضوعي الثِّيوقراطيَّة والعِلمانيَّة، وحاوَلْنا دراستَهما بالتَّفصيل على ضوء الكتاب المقدَّس والقرآن الكريم.

وقد كانَ منهجُنا الأساسيُّ في معالجة الموضوع قائماً على الاعتدال وعدم التطرُّف، وبذلنا الجهدَ في إظهار المآزق التي وَقَعَ فيها مَنْ أرادَ السَّيطرةَ على النَّاس عن طريق الثِّيوقراطيَّة أو العِلمانيَّة، وأردنا بذلك إظهارَ الحقائق التي يعرفُها الكثيرون منَّا ولكنَّهم يتجاهلونها لأنَّ تطبيقَها لا يخدمُ مصالحَهم كما هو بيّنٌ.

ويسرُّنا أن يستفيدَ المنصفون من هذه الدِّراسة وهذا مِقياسُ نجاحنا.

ما توفيقُنا إلَّا بالله عليه توكَّلنا وإليه نُنيب.

فهرس الموضوعات

تمهيد 3
الباب الأوَّل: العلاقة بين الدِّين والدَّولة 8
1.موقع الدِّين من الدَّولة 8
2.العلمانيَّة 11
3.الإسلام بمقتضى القرآن الكريم 17
4.الدَّولة والطُّرق الصوفيَّة 20
5.الدَّولة والتَّعليم الدِّينيُّ 24
أ.العقيدة 24
ب.العبادة 25
ت.التَّعليم الأخلاقيُّ 26
ث.ثانويات الأئمَّة والخُطباء في تُركيا 26
6.الدَّولة والأحزابُ السِّياسيَّة 29
أ.الحزب القائم على أساس الدِّين 30
ب.الجمهورية الإسلاميَّة مثل إيران 34
7.تكاتف الجيش والشَّعب 38
الباب الثَّاني: الثّيوقراطيّة والعلمانيّة في الكتاب المقدَّس والقرآن الكريم 41
1.الكتاب المقدَّس والثيوقراطيَّة 41
أ.حول مفهوم الثيوقراطيّة 42
ب.الكنيسة والثيوقراطيّة 44
2.القرآن والثيوقراطيّة 45
القواعد المتعلِّقة بالإدارة 47
1.العدالة 47
2.الحُرِّيَّة 47

3. إعمال العقل 49
4. الخوف من الله وحده 50
5. الوقوف ضدَّ الخطأ 51
نظرةُ المذاهب الشِّيعية والطُّرق الصُّوفيَّة إلى رئاسة الدولة 53
1.الجمهوريَّة الإسلاميَّة الإيرانيَّة 53
2.الطُّرق الصُّوفيَّة 55
المساجد والثيوقراطيَّة 57
العلمانيَّة 58
الخُلاصة 61

الباب الأوَّل: العلاقةُ بين الدِّين والدَّولة

1. موقعُ الدِّين من الدَّولة :

الدَّولةُ هي مُؤسَّسةٌ، ولا يُقالُ عن المؤسَّسةِ إنَّها مُتديِّنةٌ أو غيرُ مُتديِّنةٍ، فالدَّولةُ لا تُصلِّي ولا تصومُ ولا تهتمُّ بالآخرة، وكذلك المؤسَّساتُ الأُخرى أيضاً، فهي ليستْ ذاتَ عقلٍ كي تدينَ، لذلك لا يصحُّ أن تُوصَفَ بالتَّديُّنِ أو عدمه، أمَّا الإنسانُ فهو خليقٌ بهذا الوصف إنْ كان مُتديِّناً، والأشخاصُ الذين يُديرون الدَّولة أو المؤسَّسة يُظهرون أثَرَ معتقداتِهم في شؤون إدارتهم لتلك المؤسَّسات، وهو أمرٌ طبيعيٌّ.

ويُطلقُ على الدَّولة التي يحكمُها المسلمون "دولة إسلاميَّة"، ومن هنا سُمِّيتْ الدَّولةُ التي يحكمها المسيحيُّون "دولة مسيحية".

ليسَ منَ الطَّبيعيِّ أن يُجبِرَ الحُكَّامُ الشَّعبَ على قبول معتقدٍ ما؛ لأنَّ ذلك مخالفٌ للمنطق السَّليم ،كما أنَّه مُخالفٌ للمبدأ الأساسيِّ الذي يقوم عليه الدِّينُ الحقُّ وهو عدمُ الإكراه في الدِّين.

وبسبب تلك المخالفات تنشأُ الدَّولةُ الدِّينيَّةُ أو الإيديولوجيَّة، وكثيراً ما تحدث الصِّراعاتُ الدَّاخليَّةُ بسبب الاضطهاد والظُّلم النَّاتج عن الإكراه في أمور العقيدة، لأنَّ المعتقدات لا يمكنُ تغييرُها بالقوَّة.

أصلُ الدِّين هو الإيمان الذي يعني التَّصديقَ بالقلب، وهو كامنٌ في أعماق الإنسان، حيثُ حُريَّتُه المطلقةُ في القَبول أو الرَّدِّ، وهذا يعني أنَّ القلبَ خارجٌ عن قوانين الإكراه والإجبار، لذا لن يقبَلَ الإكراهَ على قَبول أيِّ عقيدةٍ.

قال الله تعالى: «**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**» (البقرة، 2 / 256).

ومن أجلِ ذلك فإنَّ الإسلامَ لا يُجبرُ أحداً على أن يُصبحَ مُسلماً أو أن يكونَ سلوكُه كسلوك المسلمين، بل يُعطي لكلِّ واحدٍ الحُرِّيَّةَ ليستطيعَ أن يعيشَ حسبَ إيمانه ومُعتقداته، لذا ليس في الإسلام دولةٌ ثيوقراطيَّةٌ أي (دولة دينيَّة).

فالإدارةُ في الإسلام ليستْ باسم الله بل باسم الشَّعب، فمَنْ أحسَنَ في الحُكم فإنَّه يُثابُ، أمَّا المسيءُ فيتحمَّل المسؤوليَّة.

وعندما نُطلِقُ كلمةَ الدِّين في تركيا أو في أيِّ بلدٍ مسلمٍ فإنَّه يُفهَمُ منها الدِّين الإسلاميُّ ونبيُّ الإسلام والكتابُ الذي أنزلَه اللهُ تعالى عليه، ومَنْ أرَادَ أنْ يدخلَ في الإسلام فعليه أن يُؤمنَ وفقاً لما بيَّنه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بهذا الكتاب؛ أي أنَّه يجبُ أن يلتزمَ القُرآنَ الكريم ويتَّبعَ أوامره.

هناك مَنْ يجعلُ القرآنَ تابعاً لهواه، فيتظاهرُ بالإسلام ولكنَّه يتَّبعُ الهوى، وحتَّى يستقيمَ له ذلك فهو يعمل جاهداً لإلغاء العمل ببعض الآيات والأحاديث التي لا تتوافقُ مع أهوائه، أو بتأويلِها حسب الهوى فيزعمُ مثلاً أنَّها محصورةٌ بفترةٍ مُعيَّنةٍ من التاريخ، وهكذا يزعمون أنَّهم قد جاءوا بالمفاهيم الحديثة للدِّين وبالتوفيق بينه وبين الحياة مع علمهم أنَّ جَعْلَ القرآنَ تابعاً للهوى عملٌ غيرُ صحيحٍ، ولكي يخرجوا من حَرجهم وضيق صُدورهم النَّاتجين عمَّا اقترفوه فإنَّهم يبحثون عن المؤيِّدين لأفكارهم ليُريحوا بهم أنفسَهم، ظنّاً منهم أنَّ الكثرةَ قد تُغني عنهم من الله شيئاً، فأمَّا القريبُ منهم والموافقُ لأهوائهم فيلقى الاهتمامَ ، وأمَّا الآخَرُ فيُستبعَدُ !

يتظاهرُ هؤلاء بالقوَّة، وذلك بالتَّلميح إلى أنَّهم يتكلَّمون باسم الدَّولة أو المؤسَّسة أو المنظَّمة، وهو أسلوبٌ خاطئٌ لأنَّ المتحدِّثَ في أمور الدِّين عليه أن يتحدَّثَ باسمه دون أن يخلطَ ذلك بمؤسَّسات الدَّولة، فلا يصحُّ أن يُقالَ "دولة مُتديِّنة" كما لا يصحُّ أن يُقال "دولة مُلحِدة".

إنَّ التَّديُّنَ أو الإلحاد يصحُّ وصفاً للنَّاس فقط، وليس للدَّولة، لذا لا حقَّ لأيِّ شخصٍ أن يتحدَّثَ باسم الدَّولة أو المؤسَّسة أو المنظَّمة من مُنطلق الدِّين، لأنَّ الدَّولةَ ليستْ جماعةً

دينيَّةً مُشكَّلةً من أفرادٍ يتقاسمون نفسَ المعتقدات والأفكار، بل يتواجدُ فيها المنتسبون إلى الدِّيانات والمؤسَّسات والمنظَّمات المختلفة.

والذي يتحدَّثُ باسم الدَّولة أو المؤسَّسة من مُنطلق الدِّين فلا بُدَّ أن يتظاهرَ بأنَّ أفكارَه هي نفسُ أفكار الأفراد المنتسبين إلى تلك الدَّولة أو المؤسَّسة، وهذا غيرُ صحيحٍ، ومن الواجبِ ديناً على كلِّ مُسلمٍ أن يلتزمَ بالآيات والأحاديث الصَّحيحة.

إنَّ القُرآنَ الكريم هو ضمانُ حُريَّة الدِّين كما قالَ الله تعالى: «**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**» (**يونس، 10 / 99**). فلا بُدَّ أن يكونَ الإنسانُ حُرَّاً في الظَّاهر كما يكونُ حرَّاً في الباطن، وبهذا تتحقَّقُ الشَّخصيَّةُ الحقيقيَّةُ له.

إنَّ علاقةَ الدَّولة بمواطنيها لا يجبُ أن تعتمدَ على البُعد الدِّيني أو الفكري، بل يجبُ أن ترتكزَ على العَدالة، فالمهمَّةُ الأساسيَّةُ للدَّولة هي ضمانُ العدالة والأمن الدَّاخليِّ والخارجيِّ، والقضاءُ على العوائق التي تمنعُ تحقيقَ الحُريَّة الفكريَّة لدى المواطن.

إنَّ مَنْ يتظاهرُ بالإيمان بضغوطٍ من الدَّولة يكونُ مثلَ جرثومةٍ تُصيبُ الجسمَ بالمرض، أمَّا الذي يحظى بالحُريَّةِ الدِّينيَّة والفكريَّة، فإنّه يتولَّى مهمَّة حماية البلد.

إنَّ الحُريَّةَ الفكريَّةَ المتمثِّلةَ بحريَّة الاعتقاد تمنحُ المجتمع حصانةً وحمايةً من الآفات التي يمكن أن تفتكَ به، تماماً كعمل المصل المضاد (التَّطعيم) الذي يقوم بتقوية جهاز المناعة في الجسم.

ومن الحقِّ القولُ بأنَّ الدَّولةَ العُثمانيَّةَ قد أنصفتْ عندما اعتبرتِ الأقليَّاتِ جُزءاً من مواطني الدَّولة، ونتيجةً لهذه السِّياسة كانَ مواطنوا تلك الأقلِّيَّاتُ يشعرون بالعزَّةِ فلا فرقَ بينهم وبين غيرهم من المواطنين، وكان هذا أمراً مُهمَّاً للغاية.

ينبغي أن تكونَ الدَّولةُ كالشَّمس، فكما أنَّ الشَّمسَ لا تُفرِّقُ بين المسلمين والنَّصارى واليهود، ولا تُفرِّقُ بين الغنيِّ والفقير، ولا تُفاضِلُ بين الأقوام، كذلك يجبُ على الدَّولة أن تهتمَّ بالمواطنين على حدٍّ سَواء.

2. العِلمانيَّة :

كان أوَّلُ ظهورٍ للعِلمانيَّة في فرنسا، حيثُ أُطلِقَ مُصطلحُ العِلمانيَّة على المؤسَّسَات المستقلَّة عن هيمنة المنظَّمات الدِّينيَّة، وحين يُقالُ في هذا البلد "المؤسَّسة الدِّينيَّة" يُفهَمُ منها الكنيسة الكاثوليكيَّة، فالعلمانيَّةُ ليستْ نضالاً ضدَّ المسيحيَّة بل هي نضالٌ ضدَّ الكنيسة.[2]

ترى الكنيسةُ أنَّ لديها السُّلطةَ المطلقةَ في تعيين الملك والحكومة والحُكَّام وتوظيف الموظفين، وهي تزعمُ أنَّها تتصرَّفُ في ذلك باسم الله.[3] وما تزالُ الكنيسةُ تحتفظُ ببعض هذه السُّلطة ولو بصورةٍ أقل، حيثُ تستدعي الفائزَ بانتخابات الرِّئاسة لأداء اليمين لديها.

إنَّ التَّاريخَ الفرنسيَّ مليءٌ بالنضال ضدَّ الكنيسة، وقد بدأتْ الجهودُ لكسر هيمنة الكنيسة على الدَّولة في القرن الرَّابع عشر.[4]

ولَعلَّ المؤشِّرَ الأكبر إلى أنَّ العلمانيَّةَ لم تكنْ ضدَّ الدِّين بحدِّ ذاته، هو ما نصَّ عليه البندُ العاشرُ والبندُ الحادي عشر من الميثاق المعلن لحقوق الإنسان والمواطن الذي أعدَّه أعضاءُ المجلس التأسيسيّ في فرنسا عام 1789 م. وهما كالتالي:

البند العاشر: "لا يجبُ المساسُ بأيِّ شخصٍ بسبب آرائه، حتَّى ولو كانتْ دينيَّةً إذا لم يكن من شأن إظهارِها الإخلالُ بالنِّظام العامّ وبالقانون."

البند الحادي عشر: "من أهمّ حقوق الإنسان حريَّةُ تبليغ الأفكار والمعتقدات إلى الآخرين، فلكلِّ مواطنٍ حُريَّةُ الفكر والرَّأي والتَّعبير، بما في ذلك حريَّةُ الصَّحافة. علماً أنَّه يتحمَّل العواقبَ أمام القانون في حالة استعماله السَّيء لهذه الحُريَّة".[5]

---

[2] موسوعة لاوروس الكبير، مادة: علمانيَّة

[3] جوناي تومر، عبد الرحمن كوجوك، تاريخ الأديان، أنقرة، 1993. ص. 256

[4] موسوعة لاوروس الكبير، مادة: علمانيَّة

[5] موسوعة لاوروس الكبير، مادة: إنسان

وقد أصبحَ هذا الميثاقُ أوَّلَ جزءٍ من الدُّستور الفرنسيّ الصَّادرِ عام 1791، وكان من أهداف هذا الدُّستور إنهاءُ امتيازات الكنيسة الكاثوليكيَّة، والمساواةُ بين البروتستانتيَّة واليهوديَّة والعلمانيَّة (اللادينية)، بل وبين جميع الأديان باسم حريَّة العقيدة[6]، لأنَّ الكنيسةَ كانت لا تعترفُ بحقِّ الحياة لأصحاب الدِّيانات الأخرى.

وقد وَرَدَ في مُقدِّمة الإعلان بيانُ أهمِّيّة حقوق الإنسان وحريَّته بهذه العبارات: "قرَّرَ أعضاءُ المجلس التأسيسيّ للجمعيَّة الوطنيَّة للشعبِ الفرنسيّ، إعلانُ حقوق الإنسان الطَّبيعيَّة اللازمةِ المقدَّسةِ بميثاقٍ رسميّ"؛ وذلك لأنَّهم رأوا أنَّ عدمَ معرفة حقوق الإنسان ونسيانَها هو السَّببُ الوحيدُ في شقاء الشَّعب وفساد الحكومات.

وقد عُرِّفَتْ الحُريَّةُ في البند الرَّابع من إعلان حقوق الإنسان والمواطن لسنة 1789م (أي السَّنة التي قامت فيها الثَّورةُ الفرنسيَّة)، وقد أُدرجَ في الميثاق بندٌ يمنع تحديدَ الحُريَّة بموجب القانون. وهو كالآتي:

البند الرَّابع: "الحُريَّةُ تعني القدرة على فعل كلِّ ما لا يضرُّ بالآخر، وهكذا فإنَّ مُمارسَةَ الحقوق الطَّبيعيَّةِ لكلِّ إنسانٍ غيرُ محدودةٍ إلاّ بالحدود التي تُؤمِّنُ للآخرين من أعضاءِ المجتمع التَّمتُّع بذات الحقوق".

البند الخامس: "يمنعُ القانونُ الأفعالَ التي تُلحِقُ الضَّررَ بالمجتمع، ولا يُمكنُ منعُ أيِّ شيءٍ إلَّا ما منَعَه القانون، كما لا يمكن إجبارُ شخصٍ على فعلِ شيءٍ لم يأمرْ به القانون".

وفي تركيَّا كذلك لا تُعادي العِلمانيَّةُ الدِّينَ حسب الوثائق الرسميَّة الموجودة، وقد ورَدَ في البند الثَّاني من الدُّستور ما يلي: " جمهورية تركيا، دولةٌ ديمقراطيَّةٌ علمانيَّةٌ واجتماعيَّةٌ يحكمُها القانونُ استناداً إلى المبادئ الأساسيَّة المبيَّنةِ في البداية والموالية لقوميَّة أتاتورك، تحترمُ حقوقَ الإنسان في سلامة المجتمع والتَّضامن الوطنيّ والعدالةِ الاجتماعيَّةِ".

[6]م. سعيد خطيب أوغلو، مجلة الدِّراسة الإسلاميَّة، ج. 3 / العدد. 3. أنقرة 1989. ص. 102

فالعلمانيَّةُ ميزةٌ للدَّولة التركيَّة، ولها ميزةٌ أخرى أنَّها تحترمُ حقوقَ الإنسان، فقد نصَّ البندُ الرَّابعُ والعشرون للدُّستور أنَّه يُسمَحُ لكلِّ مواطنٍ بممارسة حُريَّة الرَّأي والاعتقاد، أي أنَّ الدُّستورَ يقبلُ كونَ العلمانيَّة ميزةً للدَّولة وأنَّ من حقِّ المواطن أن يكونَ مُتديّناً.

والبند السَّادسُ والعشرون من الدُّستور يُعطي للمواطن حُريَّة التَّعبير بكافَّة أشكاله، وقد صَدَرَ البندُ المذكورُ كالتَّالي: "ومن حقِّ كلِّ مواطنٍ أن يُعبِّرَ عن رأيه وقناعتِه عن طريق الحديث والكتابة والنَّشر والرَّسم وغيرِها من طرق إبداء الرَّأي".

ومِنَ الطَّبيعيِّ أن يكونَ الدُّستورُ هكذا، وبالفعل فقد نصَّ البندُ السَّادسُ عشر من إعلان حقوق الإنسان والمواطن على ما يلي: "إذا لم يكنْ في المجتمعات ضمانٌ للحقوق وحدودٌ تُفصِلُ بين القوى المختلفة، فجديرٌ أن يُقالَ أنَّ ليسَ لديها دستورٌ". وكذلك نصَّ الإعلانُ العالميُّ لحقوق الإنسان الذي تبنَّته الأممُ المتَّحدةُ 10 ديسمبر 1948 م على أنَّ لكلِّ شخصٍ الحقَّ في حريَّة التَّفكير والاعتقاد والدِّين.

وهذا البندُ لم يقُمْ بتجريد الدِّين عن السَّاحة الاجتماعيَّة والحكوميَّة ولا عن غيرها من مجالات الحياة، لأنَّه لا يتصوَّرُ أحدٌ أن يتجرَّدَ الإنسانُ عن عقيدته في ساحةٍ من الساحات.

ولا يُمكن للمُتديّن أن يتركَ أوامرَ الدِّين ليأخذَ أمرَ إنسانٍ آخر، ولو أُجبِرَ على ذلك فهو يُقاوِمُ سرَّاً أو علانيةً، وهذا كما وَرَدَ في مُقدِّمة الإعلان العالميِّ لحقوق الإنسان والمواطن يُؤدِّي إلى "شقاء المواطن وفساد الحكومات".

وقد ورَدَ في البند الثَّامن عشر من الإعلان العالميِّ لحقوق الإنسان ما يلي: " لكلِّ شخصٍ الحقُّ في حريَّة التَّفكير والاعتقاد والدِّين. ويشملُ هذا حقَّ حريَّة تغيير ديانته أو عقيدته، وحريَّة الإعراب عنهما بالتَّعليم والممارسة وإقامة الشَّعائر ومُراعاتها سواءً أكان ذلك سرَّاً أو جهراً، فرداً أو جماعةً".

كما وَرَدَ في مُقدِّمة الدُّستور ما يلي: "وبموجب مبادئِ العلمانيَّة لن يُسمَح قطعيَّاً تخليطُ المشاعر الدِّينيَّة المقدَّسة بشؤون الدَّولة أو السِّياسة".

وهذا يعني أنَّ تقديم الخِدْمات للمواطن لا يجبُ أن يكونَ حسب الاعتقادات الدِّينيَّة لهم، وهو ما أمَرَ به الإسلامُ أصلاً، ونحنُ نعتزُّ بانتسابنا إلى دينٍ لم يُفرِّقْ بين النَّاس في خصوص الخدْمات التي يجبُ أن تُقدَّمَ لهم رغم اختلاف اعتقاداتِهم الدِّينيَّة.

بناءً على ما سبَقَ فإنَّ العلمانيَّةَ ليستْ ضدَّ الدِّين، ولكنَّها _في الوقت نفسه_ لا تقبلُ أن تدخلَ الدَّولةُ تحت سيطرة المنظَّمات والمؤسَّسات الدِّينيَّة. وفي الإسلام لا توجد مُؤسَّسةٌ تُسيطر على الدَّولة، بخلاف المسيحيَّة حيثُ استمرَّ الصِّراعُ مع الكنيسة من أجل العلمانيَّة في فرنسا عدَّة قرون وجرتْ أحداثٌ داميةٌ كثيرةٌ.

ولكن حين قُبِلَتْ العلمانيَّة كنظامٍ للدَّولة في الجمهوريَّة التركيَّة، لم تُظهِر المؤسَّساتُ الدِّينيَّةُ أيَّ ردِّ فعلٍ سلبيٍّ، لأنَّه لا توجدُ في الإسلام مؤسَّسةٌ دينيَّةٌ تُسيطرُ على الدَّولة، ولا يوجد تعارضٌ بين الإسلام وبين تعريف العلمانيَّة السَّابق.

كما لا يوجدُ في الإسلام كهنةٌ أي رجالٌ يدَّعون بأنَّهم حُرَّاسُ الدِّين، حيث لا يحقُّ لأحدٍ أن يجعلَ هذا الدِّين وسيلةً للهيمنةِ على النَّاس، كما لم تكن المساجدُ يوماً مُهيمنةً على الدَّولة كما فعلت الكنيسة، فالإسلامُ لا يقبل الإكراهَ في العقائد : "**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**".

لا يحتاجُ شخصٌ يُريدُ أن يُصبحَ مُسلماً إلى تصديقِ مؤسَّسةٍ أو مُنظَّمةٍ دينيَّةٍ ما، ولا يحتاجُ إلى أن يجريَ طقوساً دينيَّةً مثل التَّعميد؛ لأنَّه لا وجودَ في الإسلام لأشخاصٍ أو رجالِ دينٍ يقومون بأفعالٍ باسم الله، ولم يأتِ الإسلامُ بأيِّ شرطٍ لإسلامِ أحدٍ ،ولا دخلَ للآخرين بهذا الأمر؛ لأنَّ الدِّينَ هو الإيمان، والإيمان هو التَّصديقُ من صميم القلب الذي يُعتَبرُ مكانَ الحريَّة في الإنسان، فلا يعلمُ ما فيه من الإيمان إلا اللهُ، لذا لا إكراهَ في الدِّين.

إنَّ ظهورَ مَنْ يعتبرُ العِلمانيَّةَ بديلاً عن الإسلام وأنَّها ضدُّ الدِّين هو أصلُ المشكلة.

يوجدُ في تركيا عددٌ كبيرٌ من الملحدين، أي ممَّنْ لا يقبلُ الدِّينَ أصلاً، ومنهم مَنْ يقفُ من الدِّين على حرفٍ فيقبلُ ما يحلو له ويناسب هواه دون غيره؛ وهم أصحابُ تأثيرٍ في المجتمع.

إنَّ العلمانيّين يعتبرون كلَّ ما يتعلَّقُ بالدِّين مُخالِفاً للعِلمانيَّة، أمَّا أولئك الذين يقفون من الدِّين على حرفٍ، فيعتبرون ما لا يروقُ لهم من تعاليم الدِّينِ مُخالِفاً للعلمانيَّة ويُحاولون إلغاءَه، وهم بذلك قد جعلوا العلمانيَّةَ ضدَّ الدِّين بدلاً من أن تكونَ ضدَّ المؤسَّسات الدِّينيَّة التي تُهيمنُ على الدَّولة، وهم يرون أنَّ أوامرَ الله المتعلِّقةَ بتنظيم الحياة الاجتماعيَّة والإداريَّة لا ينبغي أن تُطبَّقَ، ويعتبرون أنفسَهم أصحابَ السُّلطة المتنفِّذةِ فيها؛ وهم لا يُصرّحون بذلك، ولكن يظهرُ من لحن أقوالهم وسلوكهم ــبشكلٍ واضحٍــ ما تُخفي صدورُهم، وهم لا يقبلون الاعتراضَ على قراراتهم ومُمارساتهم المخالفةِ للدِّين حتَّى ولو كانتْ مُتعلِّقةً بالشُّؤون الخاصَّة.

يُفهَمُ من أقوالِ هؤلاء وتصرُّفاتِهم أنَّ الأوامرَ الدِّينيَّةَ المخالفةَ لآرائهم يجب تغييرُها أو إلغاؤها، وهم لا يحترمون من الدِّين إلَّا ما يتناسبُ مع مفاهيمهم الخاصَّة، ويذهبون بعيداً إذ يعتبرون أنفسَهم هم مصدرَ القرار في الدِّين الإسلاميّ وليسَ القرآنِ الكريمَ والسُّنَّةَ النَّبويَّةَ ولا أقوالَ عُلماء الدِّين، أي لا يُمكنُ التَّديُّنُ في حُكمهم إلَّا بقدْرِ ما يسمحون به !

وليس من السَّهل القيامُ بمجادلةِ مَنْ يُريدُ حصرَ الدِّين في إطار الضَّمائر فقط، ولا سيَّما إذا كان ذلك الدِّينُ هو دينُ الإسلام، لأنَّ المعارضَةَ للإسلام هي مُعارضةٌ لجميع القيم العالميَّة، فما يُريدُه الإسلامُ ينسجمُ تمامَ الانسجام مع الطَّبيعة البشريَّة والحياة الاجتماعيَّةِ ومع كافَّة القيم العالميَّة لأنَّه دينُ الله الذي وضَعَ تلك القيمَ لصالح البشريَّة. قال الله تعالى: «**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**» (**الروم، 30 / 30**).

فعندما تتحدَّثُ معهم عن تعريف العلمانيَّة وحقوق الإنسان والقيم العالميَّة المعتمدة في الدُّستور والقانون لا يتقبَّلونها بحجَّة أنَّ الظُّروفَ الخاصَّةَ للبلد لا تسمحُ بذلك.

في الواقع فإنَّ العلمانيَّة ميزةٌ للدَّولة، ولكنَّهم يجعلونها ميزةً لأنفسهم فيقولُ لكَ أحدُهم: "أنا علمانيٌّ وأنتَ لستَ علمانيّاً"، أو يقولون كلاماً من هذا القبيل، فهم يُفرّقون النَّاس إلى فرقتين "علمانيين وغير علمانيين"!

لا شكَّ أنَّ هؤلاءِ ليسوا مُستريحين تجاهَ ضمائرهم، لذا نرى أحياناً مَنْ يعترفُ منهم من أجل أن يُريح ضميره أنَّ ما فعَلَه ليس صحيحاً، فهذا الخطأُ في الفهم والسُّلوك هو أساسُ تلك الاضطرابات، ولا شكَّ أنَّ مقاومتَهم بالقول الحقِّ والقيم العالميَّة تكونُ أشدَّ تأثيراً لأنَّ مَنْ يُحارِبُ الحقَّ والقيمَ مهزومٌ قبل أن يخوض المعركة، ولأنَّ الدُّعاة الصَّادقين إلى الحقِّ والقيم العالميَّةِ يصلون إلى النِّجاح من قريبٍ.

3. الإسلام بمقتضى القرآن الكريم :

الإسلامُ هو دينُ الله، ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم هو نبيُّه الخاتم، والقرآنُ الكريمُ هو الكتابُ الإلهيُّ الذي يدلُّ على نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يُبيّنُ للنَّاس ما أراده اللهُ تعالى منهم، وقد بَلَغَ إلينا عن طريق التَّواتر؛ فعلى المسلمين أن يفهموا القرآنَ الكريمَ جيّداً. قال الله تعالى: «**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**» (**محمد، 47 / 24**)؛ «**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**» (**القمر، 54 / 17، 22، 32**).

وقد نسيَ المسلمون تدبُّرَ القرآنِ الكريمِ على مدى قرونٍ، لذلكَ أَصبَحَ القُرآنُ مجرَّدَ كتابٍ مُقدَّسٍ بعيدِ المنال لا يُوصَلُ إليه بسبب نسيان تدبُّرِه، ونشأتْ عند كثيرٍ من النَّاس قناعةٌ في أنَّه لا يمكنُ فهمُ القرآن الكريم، كما داهمتْ عقولَ المتأخّرين فكرةٌ قاتلةٌ؛ وهي أنَّ القُدماء قد حلَّوا كلَّ المسائل، فلا حاجةَ إذاً للتفكير فيها، فأُغلِقَ البابُ أمام كلِّ جديد.

وفي نهاية المطاف صارَ القرآنُ يُقرَأُ لكسب الثَّواب وفي مراسم العزاء فقط في مُفارَقةٍ واضحةٍ لقول الله تعالى: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**» (**الإسراء، 17 / 9**).

حقَّاً إنَّ هذا القرآن الكريمَ يهدي لأقوم الطُّرق وأوضحِ السُّبُل، ولكنَّ قراءةَ القُرآنِ الكريم لكسب الثَّواب فقط دون الفهم والعمل بما فيه لا يُفيدُ شيئاً، وهو كالاكتفاءِ بشمِّ رائحة العسل المصفَّى دونَ أنْ يُذاقَ طعمُه، وما الذي يستفيدُه الجسمُ من العسَلَ إذا لم يُشربْ ؟ !

وقد قامَ المسلمون بقراءة القرآن دون أن يُفهم على مدى قرونٍ طويلةٍ، ولم يستفيدوا منه، ولم يُطبّقوا تعاليمَه في حياتهم اليوميَّة، وقد تداخلتِ الخُرافةُ والعقائدُ الفاسِدةُ والطُّقوسُ التَّقليديَّةُ مع المفاهيم الدِّينيَّة لتُشكِّلَ ديناً جديداً لا علاقةَ له بالإسلام إلَّا بالاسم، وقلَّما كان هناك مَنْ يُحاسبون أنفسَهم فيقرؤون القُرآنَ ليفهموا ويتدبَّروا معانيه، وقد قال الله تعالى: «**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**» (**الحديد، 57 / 16**).

قلَّما نجدُ في تركيا مَنْ لا يعتبرُ نفسَه مُسلماً، فالمسلمون في تركيا ينقسمون إلى قسمين: القسمِ الأوَّل يعتبرُ نفسَه مُسلماً حسبَ ما يعتقد، منهم مَنْ يصومُ ويُصلّي صلاةَ العيدين ويُضحّي وأحياناً يُصلّي صلاةَ الجُمُعة، وقد تأثَّرَ هؤلاء بالثَّقافة الغربيَّة، ويسهُلُ أن نُسمّيهم بـ "المستغربين". وأمَّا القسمُ الثَّاني فلديهم الإرادةُ والعزمُ في تلبيةِ أوامر الله تعالى، ونُسمّيهم بـ "المتدَيّنين"، ويعتبرُهُم المستغتربون رجعيينَّ ومُحافظين، أمَّا المستغربون في نظر المتديّنين فهُم فُسَّاقٌ وخارجون عن الدّين، وفي الآونة الأخيرة جمعتْ بين الفريقين الجهودُ المبذولةُ في سبيل فهم وتطبيق القرآن الكريم، ذلك أنَّ المستغتربين حين توجَّهوا نحو القرآن ودرسوه عرفوا أنَّ الذين يزعمون أنَّهم مُتديّنون لم يحافظوا على الدّين نقيَّاً بل خلطوه بالخُرافات الكثيرة، فأظهروا الفَرَحَ لبقائِهم بعيدين عن تلك الخُرافات، ومن ناحيةٍ أُخرى وجَّهوا النقدَ للمُتديّنين، وقد أحدَثَ هذا الموقفُ اضطراباتٍ عند بعض المتديّنين فاضطُرّوا إلى دراسة القُرآن ليُدافعوا عن أنفسِهم تجاه المستغربين، وبدراستِهم للقُرآن الكريم عرَفُوا أنَّ المستغربين على حقٍّ في نقدهم إيَّاهم، فقد تَرَكَ هذا التوجُّهُ القُرآنيُّ تأثيراً عميقاً في قلوب جميع المتديّنين، كما عَرَفَ كلُّ واحدٍ منهم أنَّه قد حَانَ الوقتُ للالتفاف حول مائدة القرآن الكريم.

كما أدَّتْ هذه الاضطراباتُ إلى معرفة بعض النَّاس بأنَّهم بعيدون عن الدّين تمامَ البُعد، وهذه الحالةُ تحدُثُ في كلِّ بيئةٍ يبدأ فيها التوجُّهُ نحو كتاب الله تعالى. قال الله تعالى: **«وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»** (**الجاثية، 45 / 17**). **«لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ، رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ»** (**البينة، 98 / 1–3**). **« وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا، وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»** (**الاسراء، 17 81–82**).

وفي الأماكن التي كان التوجُّهُ فيها نحو القُرآن قويَّاً، تفكَّكتِ الجماعاتُ وتفرَّقَ شملُها ممَّا حدَا بالقائمين عليها لاتخاذِ إجراءاتٍ صارمةٍ بسبب خوفِهم من فقدان ما هُم عليه من الأفكار ومَنْ حولَهم من الأنصار، ولكنَّ هذه الاجراءاتِ لم تعُدْ بالفائدة بل زادتْ الطِّينَ بلَّةً، و بسبب تمسُّكِهم بالخطأ وإصرارِهم عليه لم يعُدْ النُّصحُ نافعاً لهم؛ لأنَّ سلوكَهم عاطفيٌّ بحتٌ بعيدٌ عن التفكيرِ الصَّحيح، لكنَّ الواجِبَ على الدُّعاة عدمُ اليأس من نُصح

أولئك، بل يجبُ التحلّي بالصَّبر تجاههم. قال الله تعالى: « **إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**» (**آل عمران، 3 / 120**).

وتلكَ الاضطراباتُ ليستْ شرَّاً كلَّها، بل قد تكمُنُ فيها الفائدةُ؛ لأنَّها ستكونُ سبباً لخير بعضِ النَّاس، كما يظهرُ من خلالها الوجهُ الحقيقيُّ للبعض الآخر، وبالتالي يُمكنُ الوصولُ إلى الفهم الصَّحيح للدِّين.

وليس التوجُّهُ نحو القرآنِ بخيالٍ جميلٍ أو شعارٍ يُرفَعُ، ولكنَّه تصميمٌ وعزيمةٌ قويَّةٌ ينعكس أثرُهما على الحياة الخاصَّة والعامَّة، كما يصلُ أثرُه إلى السُّلوك البشريّ برمَّته، غير أنَّ هناكَ بعضاً ممَّن صدَّعوا الرُّؤوسَ بشعارِ "التوجُّه نحو القرآن" يُحاولون تطويعَ القرآن لهواهم بدلاً من اتباع القُرآن وامتثالِ أوامره، وهؤلاء حين ينتقدون الآخرين لا يشعرون بما هم فيه من عِوَجٍ وخروجٍ عن السَّبيل. على مَنْ يتوجَّهُ نحو القُرآن أن يُحاسبَ نفسَه على مدى التزامه بتعليمات القرآن حتَّى لا يقَعَ في مثل تلك الحال السَّيِّئة. قال الله تعالى: «**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**» (**آل عمران، 3 / 103**)؛ « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**» (**النساء، 4 / 59**)؛ «**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**» (**المائدة، 5 / 49–50**).

4. الدَّولةُ والطُّرق الصُّوفيَّة :

الإنسانُ مدنيٌّ بطبيعته، ولا أدلَّ على مدنيَّته من بحثه الدَّائم عن الأماكن التي يسهُلُ الحضورُ إليها ليلتقيَ فيها الأصدقاءَ والمعارفَ، فيتبادلون أطرافَ الحديث ويدخلون في حواراتٍ ونقاشاتٍ ويتبادلون الآراءَ في الأحداث اليوميَّة، وفي مثل هذه البيئات تُعقَدُ النَّدوات العلميَّةُ ذاتُ الأبعادِ الفكريَّة. وقد وفَّرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم هذه البيئةَ للمُسلمين السَّابقين، فقد كانَ يأتي إليه النَّاسُ من جميع طبقاتهم بكلِّ سهولةٍ ليستمعوا إلى أحاديثه صلى الله عليه وسلم، وكانَ المسجدُ النَّبويُّ بالمدينة المنوَّرة خيرُ مثالٍ على ذلك؛ حيث كان يحضُرُ جميعُ النَّاس؛ النِّساءُ والرِّجالُ، والشَّبابُ، والشُّيوخُ، العالِمُ والجاهِلُ والمسلِمُ والكافِرُ والمحلّيُّ والأجنبيُّ، كلٌّ منهم يحضُر إلى مجلسه صلى الله عليه وسلم في المسجد النَّبويّ ويستمعُ إلى أقواله، وكان مدارُ أقواله عليه الصَّلاة والسَّلام تجري حول الدَّعوة إلى الدِّين الجديد مُستقياً هديَه من القُرآن الكريم، فكان كلُّ واحدٍ من الحاضرين يستفيدُ حسبَ قدرته، ولم يكن على الحاضرين دفعُ رسومٍ للدُّخول إلى ذلك المجلس، أو دفعُ ثمنِ الضِّيافة عنده، لأنَّ مجلسَه صلى الله عليه وسلم لم يكن كما يُعرَفُ اليوم بالجمعيات أو النَّوادي أو المقاهي.

ويجوزُ الصَّلاةُ لمنْ لا يعرفُ معنى الآيات التي يقرؤها في صلاته؛ لأنَّه يقومُ بأداء ما أُمِرَ به من أداءِ الصَّلاة، ومعلومٌ أنَّ الأمرَ بأداءِ الصَّلاة لا يلزم منه فهمُ ما يُقرأُ من القرآن الكريم، وذلك بالرَّغم من أنَّ فهمَ القرآن الكريم هو هدفٌ أساسيٌّ بحدِّ ذاته، فقراءتُه في الصَّلاة تُساعِد في فهمه وتدبُّره، وقد أشارَ صاحبُ المبسوط إلى هذا حيثُ قال: قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ كانَ له إمامٌ فقراءةُ الإمام له قراءة». وقال في الحديث المعروف، «وإذا كبَّرَ فكبِّروا، وإذا قَرأَ فأنصتوا». ومنْعُ المقتدي من القراءة خلف الإمام مرويٌّ عن ثمانين نفراً من كبار الصَّحابة، وقد جَمَعَ أسماءَهم أهلُ الحديث. قال سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله تعالى "مَنْ قَرَأَ خلفَ الإمام فسدُتْ صلاتُه"، والمعنى فيه أنَّ القراءةَ غيرُ مقصودةٍ لعينِها بل للتدبُّرِ والتفكُّرِ والعمل بها، وقال ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ تعالى عنه : "أُنزِلَ القُرآنُ ليُعمَل به، فاتَّخذَ النَّاسُ تلاوتَه عملاً"، وحصولُ هذا المقصودِ يكونُ عند قراءة الإمام وإنصاتِ القوم،

فإذا اشتغَلَ كلُّ واحدٍ منهم بالقراءة لا يتمُّ هذا المقصودُ".[7] فهدفُهُمُ الأساسيُّ يجبُ أن يكونَ فهمَ القرآن الكريم ولو في الصَّلاة.

ولو أنَّ أهل الطُّرق الصُّوفيَّة اتَّبعوا منهَجَ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم وعقدوا مجالسَ العلم لفهمِ القرآن الكريم وأنشؤوا مراكزَ التَّعليم والتَّربية لكانَ خيراً لهم وأقوَم، ولكنَّهم لم يبذلوا جهداً لفهم القرآن الكريم، وكان ما يقرؤون من القرآن مُطرِباً لآذانهم وقلوبهم دون عقولهم، وقد اكتفوا بالتغنّي به دون فهمه والتفقُّهِ فيه، مُخالفين دعوةَ القرآن لهم بتدبُّره وإعمالِ العقل في فهم معانيه، فأصبَحَ القُرآنُ زينةً تُزيّنُ المجالِسَ والنَّدوات، وكانت النَّتيجةُ الحتميَّةُ لذلك هي انتشارُ الخرافات والأساطير، وتمادياً في الزَّيغ والانحراف أُعتُبِرَ شيخُ الطَّريقة زعيماً روحيَّاً له علاقةٌ مع العالَمِ الرُّوحيّ فأصبحَ مثلَ القِدّيس في الدِّيانة النَّصرانيَّة، وأصبَحَ وسيطاً بين الله وبين تلاميذه (مُريديه).

وامتازَ هؤلاء الشُّيوخ بألقابٍ مثل "أولياء الله" مع أنَّ كلَّ مؤمنٍ وليٌّ لله وعبدٌ له، ولم تنتهِ الحالةُ إلى هذا الحدِّ، بل قالوا إنَّهم يتميَّزون بقُربهم الخاصّ منَ الله تعالى دون غيرهم، وأنَّ لهم صفاتٍ فوقَ العادة، وأنَّ اللهَ تعالى قد أعطى لهم حقَّ التصرُّفِ في الكون، وغير ذلك ممَّا لا أصلَ له من الدِّين.

لقد أصبَحَ الانتسابُ إلى الطُّرق الصُّوفيَّة يتمُّ بمراسِمَ رسميَّة؛ كأنْ يُشترطُ على مَنْ أرادَ أن ينتسِبَ إلى الطَّريقة أن يرى رؤيا تُشير إلى عدمِ انتسابِه إلى طريقةٍ من قبل، وأن يحكيَ رؤياه إلى شيخ الطَّريقة ليوافِقَ على انتسابه إليها، وهذه المراسِمُ الكهنوتيَّةُ بعيدةٌ تمامَ البُعد عن روح الإسلام وشريعته، وربَّما كان هذا ليتمَّ لهم منعُ مَنْ هو غيرُ مرغوبٍ فيه من الدُّخول إلى الطَّريقة، وعلى هذا فإنَّ أبوابَ الطَّريقةِ مُغلَقَةٌ على مَنْ هو خارجها.

وقد انقسَمَ النَّاسُ إلى مَنْ هو منسوبٌ إلى الطُّرق ومَنْ لم ينتسبْ إليها، وقد ساعَدَ هذا على تقديس الطُّرق وبالتالي تقديسِ شيوخها، فكثيرٌ من المريدين (تلاميذ شيخ الطَّريقة) زعموا أنَّ ما نالوه من النِّعم إنَّما كانَ من فضل شيخهم عليهم، كما زعموا أنَّ الشُّيوخَ يستقبلون نوعاً من الوحي الإلهيّ، وأنَّهم يعرفون الغيبَ، وحتَّى تُصبحَ الطَّريقةُ أكثرَ قبولاً لدى النَّاس شَرَعوا بإظهار الكرامات، حتَّى أصبَحَ همُّ كلِّ مُريدٍ هو في أن ينالَ كرامةً من

[7] المبسوط، لمحمد بن أحمد بن أبي سهل السَّرخسي، ج. 1 / ص. 199-200

كرامات شيخه، وما إن يصدُرُ من الشَّيخِ قولٌ أو فعلٌ صادفَ أن يكونَ مُلفتاً _كما قد يحصل مع أيَّ واحدٍ منَّا_ فإنَّ البعضَ يتخيَّلُ أنَّ ذلك كرامةٌ، فيبدؤون بنشرِه وتضخيمِه، وكلَّما ازدَادَ انتشاراً تضخَّمَ حتَّى ينتهيَ الأمرُ بتصويره كأنَّه مُعجزةٌ كبيرةٌ.

كما أنَّ هناك زعماً يقولُ بأنَّ الشَّيخَ له العِلمُ اللَّدنيُّ والباطنيُّ، وهذا الزَّعمُ أيضاً من الشَّطحات التي قبلَها الحمقى من النَّاس كأنَّها حِكمةٌ.[8] وقبل 180 عاماً تقريباً قد ابتُدِعَ نوعٌ من العبادة على يد الطَّريقةِ الخالديَّة وهي شعبةٌ من الطَّريقةِ النقشبنديَّة باسم "الرَّابطة بالشَّيخ"[9] حتَّى ذَهَبَ بعضُ المريدين (تلاميذُ الشَّيخ) إلى القول بأنَّ اللهَ تعالى يتجلَّى في الشَّيخ، وأنَّه يُغيثُهم في الدُّنيا ويشفعُ لهم في الآخرة ويُنقذُ مُريديه (تلاميذَه) من النَّار! ولتدعيمِ ما ذهبوا إليه من ضَلالٍ وزيغٍ، فإنَّهم يعمدون إلى بعض الآياتِ القرآنيَّةِ، فيأخذون بعباراتٍ منها ويتركونَ أُخرى بقصد تحريف معاني الآيات لتنسجمَ مع مزاعمهم التي تُخالفُ القرآنَ الكريمَ مُخالفةً واضحةً، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ دارسَ القرآن بدقَّةٍ يعرفُ أنَّ الأنبياءَ والرُّسلَ جادلوا ضدَّ مثل هذه المزاعم والأكاذيب، والأكثرُ أسفاً هو أنَّ الكثيرَ من المسلمين يحسبون أنَّ منهجَ تلك الطُّرق المنحرفة يُقرِّبُهم إلى الله، ولكنَّهم حين يعرفون الحقيقةَ ربَّما يكونُ قد فاتَ الآوان وانتهى كلُّ شيءٍ، وأمنياتُنا أن يعرفوا الحقيقةَ ويتوبوا قبل مغادرة هذه الدُّنيا.

لقد رأينا من خلال دراستنا في الطُّرق الصُّوفيَّة أنَّه لا توجد طريقةٌ منها لم تقعْ في هاوية الخُرافات باختلاف درجاتها.

---

[8] العلم اللَّدُنِّي: هو تقديمُ الكشف والذَّوق على النصّ، وتأويلُ النصّ ليوافقَه. وهو من مصادر التلقي عند الصُّوفيَّة ويعتبرونه علماً يأتي من لدّن الله عز وجل، وقد استندوا إلى قصَّة موسى عليه الصَّلاة والسَّلام والعبد الصَّالح الخضر الواردة في سورة الكهف (**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**).

[9] الرَّابطة بالشَّيخ: هي عبارةٌ عن استحضار صورة الشَّيخ عند الذكر، وهي من الآداب التي يتأدَّبُ بها المريدُ مع شيخه وهي تُمكِّنُه من الوصول إلى الرُّوحانيَّة التي ينشدُها، وهي صورةٌ من صور التَّبرك، وهي منصوصٌ عليها في عدَّة طرق كأدبٍ من الآداب وفي الخالدية النقشبندية ترتقي إلى الرَّكنيَّة.

وقد وفَّرَ المسلمون فرصةَ وصول شيوخ الطُّرق الصُّوفيَّة إلى تلك المرتبة، حيث اكتفوا بتلاوة القرآن بأصواتٍ جميلةٍ بدون أن يفهموا معناه، ولم يتدبَّروا ما فيه، وكانت علاقتُهم بالقرآن تتمثَّلُ بتلاوته في الاحتفالات والمراسم والجنائز، وفي هذا المقام أودُّ أن أنقلَ بعضَ العبارات المشهورة في أوساط الطُّرق الصُّوفيَّة لنعتبرَ معاً: "يحرُمُ على المريد (التلميذ) الاعتراضُ على الشَّيخ ولو كان يرى نفسَه حقَّاً.[10] وإذا لقَّنَ الشَّيخُ مريدَه شيئاً فعلى المريد أن ينشغلَ به دوماً، وأن لا يلتفتَ إلى غيره شرَّاً كان أو خيراً.[11] وعلى المريد أيضاً أن يُنفِّذَ أوامرَ الشَّيخ فوراً وبدون تأويلٍ؛ لأنَّ التَّأويلَ والتأخير يؤدِّيان إلى الانقطاع الكبير. وعلى المريد أن يكونَ أمام الشَّيخ كالميِّت على المغتسل حتَّى يستطيعَ التصرُّفَ فيه كما يشاء".

وخلاصةُ الكلام أنَّ المريد يرتبطُ بالشَّيخ كارتباط العبد بسيِّده، بل أشدَّ ارتباطاً، لأنَّ العبدَ من الممكن أن يعصي سيِّدَه أو يشكوَه سرَّاً، أمَّا المريدُ فلا يملك سوى الطَّاعةَ المطلقةَ للشَّيخ في السِّرِّ والعلن.

إنَّ النّرجسيَّةَ المفرِطةَ التي يُمارسُها شُيوخُ الطُّرق الصُّوفيَّة تسلبُ من أتباعهم والمؤمنين بهم نشاطَهم وفعاليَّتَهم وثقتَهم بأنفسهم فيصبح الواحدُ منهم إنساناً إمَّعةً بلا شخصيَّةٍ.

إنَّ الأماكنَ التي تُجري فيها الصُّوفيَّةُ نشاطَها تُسمَّى تَكيّة أو زاوية، وهذه الأماكنُ مُغلقةٌ رسميَّاً في بعض الدول الإسلاميَّة، ومع ذلك فالأنشطةُ فيها مُستمرَّةٌ.

إنَّ وجودَ التصوُّفِ وما يترتَّبُ عليه من شُيوع الخُرافة موضوعٌ خطيرٌ جدَّاً يجب الانتباهُ له والتيقُّظ، وعلى الدَّولة أن لا تكون طرفاً في هذا الموضوع حتَّى يتسنَّى دراستُه وإيضاحُه بطريقةٍ مُحايدةٍ بعيداً عن تأثير سُلطات الدَّولة، وذلك للوصول إلى النتائج السَّليمة.

---

[10] الأخلاق الصُّوفيَّة، لكودكو، ج. 3 / ص . 5

[11] الأخلاق الصُّوفيَّة، لكودكو، ج. 2 / ص . 248

5. الدَّولة والتَّعليم الدِّيني :

الحُرِّيَّةُ الدِّينيَّةُ تعني أن يكونَ الإنسانُ حُرَّاً في دينه فلا يُكرَهُ على تغييره، والحُرِّيَّةُ الدِّينيَّةُ تشمَلُ حُريَّةَ التَّعليم الدِّينيّ أيضاً، والتَّعليمُ الدِّينيُّ ينقسمُ إلى ثلاثةِ أنواعٍ: العقيدة، والعبادة، والأخلاق.

أ. العقيدة :

لا يلزمُ من الإنسان الذي يدين بدينٍ ما أن يكون ذا مستوىً تعليميٍّ مُعيَّنٍ، كما لا يلزمه أن يكونَ من طبقةٍ اجتماعيَّةٍ مُعيَّنةٍ، فهو مُؤمنٌ بعقيدته بغضِّ النَّظر عن حاله الاجتماعيّ ومستواه الفكريّ والعِلميّ، فكلُّ الفَوارق الاجتماعيّة والعلميّة وغيرِها لا تقفُ أمام الاعتقاد، والإنسانُ في كلِّ الحالات والمواقف يُحاولُ أن يحيا ويُصرِّفَ أمورَه حسب اعتقاده.

ووعاءُ الإيمانِ لا بُدَّ أن يُملأ بالعلم النَّافع الذي يُعزِّزُ الإيمان، وإلَّا سيكونُ الفراغُ النَّاشئُ عن عدم التَّعليم الدِّينيّ مُخيفاً، والبديلُ الحتميُّ هو الخُرافة والأساطير.

نجدُ اليومَ كثيراً من العُلماء وكبار الموظَّفين والتجَّار والصِّناعيِّين ورجالِ الأعمال بدؤوا يبذلون جهوداً ليَعودوا إلى دينهم من جديد، ولكن بعد فترةٍ من الزمان ربَّما يقعون في الخُرافة لعدم معرفتهم الكافية في دينهم عقيدةً وعبادةً وأخلاقاً.

فأوَّلُ ما يجبُ على المسلم أن يتعلَّمه هو تأسيسُ عقيدتِه من مصدرٍ صحيحٍ بعيداً عن الخُرافات والشَّوائب، والطَّريقُ الأمثلُ في ذلك هو القُرآن الكريم، وهو كتابُ الله الخالقِ للبشريَّةِ جمعاء، والعقيدةُ التي استُقيتْ من القُرآن تجعل صاحبَها مفتوحَ الآفاق ذا ملكةٍ تمكِّنُه من أن يتَّسِعَ لجميع البَشَر على اختلاف مشاربهم ويتفاهمَ مع جميع المجتمعات على اختلاف ألوانها. قال اللهُ تعالى: «**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ** ..» (**الكهف، 18 / 29**). « **مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**» (**الاسراء، 17 / 15**). ولكي يتمَّ تعليمُ الإسلام صحيحاً فلا بُدَّ من أن تُدرَّسَ معاني القرآن الكريم كمادَّةٍ مُقرَّرةٍ

في المدارس في جميع البُلدان الإسلاميَّة، حيثُ أنَّ كتابَ الله تعالى هو السِّلاحُ الأمثلُ في القضاء على الخُرافة.

ب. العبادة :

ينبغي معرفةُ الأحكام المتعلّقةِ بالصَّلاة والصَّوم والحجّ والزَّكاة بشكلٍ صحيحٍ، وعلى كلّ مَنْ يُصلّي أن يحفظَ الفاتحةَ وقصار السُّور من القرآن الكريم وآيةَ الكُرسي والأدعية المخصوصة للصَّلاة بشكلٍ صحيحٍ، كما يجب عليه أن يتعلَّمَ الآياتِ المتعلّقةَ بالمعاملات والنَّصائح التي تلزمُ المسلمَ في الحياة اليوميَّة، وتعلُّم ذلك بشكلٍ صحيحٍ ليس بالأمر الصَّعب؛ لأنَّها قليلةٌ وسهلةٌ، وعلى المسلمين من غير العرب أن يتعلَّموها بالعربيَّة وفقاً للقواعد العربيَّة والتَّجويد على وجه الخصوص، فهناك كثيرٌ من المسلمين من غير العرب – الأتراك مثلاً– لا يستطيعون قراءةَ القُرآن على وجهٍ صحيحٍ إلَّا الذين تخرَّجوا من ثانويَّات الأئمَّة والخطباء، ومَنْ تعلَّمَ في مدارسَ خاصَّةٍ بتحفيظ القرآن، وقليلٌ ما هم، لا سيَّما في العصر الحديث وذلك بسبب إغلاق مدارس تحفيظ القرآن والحدِّ من انتشار ثانويَّات الأئمَّة والخطباء، وقد أدَّتْ هذه الحالةُ إلى أنَّ الكثيرَ ممَّن هم في مستوىً عالٍ في العلوم الأخرى، ومعروفون بالأخلاق الفاضلة والمكانة المرموقة في المجتمع أصبحوا يخجلون من أنفسهم ويشعرون بالقصور نتيجةَ قلَّةِ علمهم الدِّينيّ.

وقراءةُ القرآن الكريم بشكلٍ صحيحٍ هو ما يرغبُ فيه كلُّ مسلمٍ، فلا بدَّ من توفير البيئة المناسبة الصَّحيحة لتحقيقِ رغبة المسلمين في تعلُّم القرآن الكريم بشكلٍ صحيحٍ، وإلَّا سيتمُّ ذلك بطريقٍ خاطئٍ، لذا ينبغي أن يبدأ تعليمُ قراءة القرآن الكريم منَ المدارس الابتدائيَّة، فمدارسُ تحفيظ القرآن الكريم وثانويَّاتُ الأئمَّةِ والخُطباء ليستْ كافيةً في أداء هذه المهمَّة، وبسبب عدم إعطاء التعليم الدِّينيّ حقَّه في المدارس الحكوميَّة، فقد نتَجَ عن ذلك زيادةٌ مُفرطةٌ في عدد الطلَّاب في مدارس الأئمَّة والخُطباء، لا سيَّما قبل إغلاق الأقسام الإعداديَّةِ منها، كما أنَّ نقصَ المعلومات الدِّينيَّةِ عند طلَّاب المدارس الحكوميَّةِ أدَّى إلى انحرافٍ سلوكيٍّ لكثيرٍ منهم.

ت. التَّعليم الأخلاقيُّ :

على كلِّ إنسانٍ حقوقٌ وواجباتٌ تجاه نفسه وأسرته ومجتمعه ووطنه وبني جنسه من البشر جميعاً، وعلى المسلم أن يتعلَّمَ الواجباتِ والحلالَ والحرام بشكلٍ صحيحٍ، وإلَّا لا يُمكنُ أن يعتبرَ نفسَه مسلماً حقَّاً، فضلاً عن أن يكونَ قُدوةً للآخرين.

ث. ثانويَّات الأئمَّة والخُطباء :

باعتماد قانونِ توحيد التَّدريس عام 1924م قد دخلتْ جميعُ المؤسَّسات العلميَّة تحتَ سُلطة وزارة التَّربية والتَّعليم، وبناءً على ذلك القرار فإنَّ المدارسَ التَّابعةَ لوزارة الأوقاف والوزارة الشَّرعيَّة، والمدارس العسكريَّة الرشديَّة والإعداديَّة التَّابعة لوزارة الدفاع، والمدراس المسمَّاة بدور الأيتام التَّابعة لوزارة الصِّحَّة قد دخلتْ تحت سُلطة وزارة التَّربية والتَّعليم.

كما هو معروفٌ فإنَّ تشريعَ القوانين يتمُّ حسبَ الحاجات ثم يتمُّ تغييرُها إذا دعتِ الضَّرورةُ لذلك، أو يتمُّ إلغاؤها في حالة عدم الحاجة إليها؛ بناءً عليه فقد تمَّ التَّغييرُ الأوَّلُ في قانون توحيد التَّدريس عام 1925م بجعل الثَّانويَّات العسكريَّة تحت سلطة وزارة الدفاع، ثمَّ بعد ذلك دخلت المدراسُ التي تُؤهِّل الموظَّفين في الشُّؤون الصِّحيَّة تحت إدارة وزارة الصِّحَّة، كما دخلتْ الجامعاتُ تحت إدارة المجلس الأعلى للشُّؤون التَّعليميَّة، كما أصبَحَ الإشرافُ على المدارس الخصوصيَّة وفتحُ الجامعات تحت تصرُّفِ وزارة الأوقاف.

وثانويَّاتُ الأئمَّة والخطباء هي المؤسَّسةُ الوحيدةُ التي تُجري نشاطَها حسب قانون توحيد التَّدريس، وذلك بنصِّ الفقرة القانونيَّة التَّالية: "تتولَّى وزارةُ التَّربية والتَّعليم مهمَّة إعداد الموظَّفين لأداء الخدمات الدِّينيَّةِ مثل الإمامة والخطابة، فهي تقوم بفتح مدارسَ أُخرى لتحقيق تلك الأهداف".

وفي هذه الأيَّام لم تعُدْ ثانويَّاتُ الأئمَّةِ والخُطباء مُناسبةً لإعداد الأئمَّة والخُطباء؛ لأنَّها أصبحت تقوم بتدريس التَّعاليم الدِّينيَّة المتبنَّاة من قبل الدَّولة حسب المادة 24 من القانون التركيّ، ولا يجد الطلَّابُ سبيلاً إلّا التلقِّي وفقاً للمنهاج المقرَّر، أمّا مَنْ يرغبُ منهم في التوسُّع بتعلُّم دينه، فبالإضافة إلى انتسابه للثانويَّات فإنَّه يلتحقُ بمدراسَ لتحفيظ القرآن

أيضاً، وبعد أن أصبحتِ المرحلةُ الإلزاميَّةُ ثماني سنواتٍ بدلاً من خمسةٍ سيصبحُ من الصَّعب أن يوجدَ مَنْ يُصلّي إماماً في المحراب، لأنَّه من المستحيل تخريجُ مَنْ يستطيعُ أن يقرأَ القُرآنَ الكريمَ بشكلٍ صحيحٍ من المرحلة الثَّانويَّة، لأنَّ الطَّالبَ يفقدُ في هذا السِّنّ القدرةَ على تعلُّم التلفُّظ الصَّحيح لحروفِ القُرآن الكريم[12].

يوجدُ في مدارس تحفيظ القرآن الكريم نوعان من الدَّورات التَّعليميَّة: إحداهما الدَّوراتُ القصيرةُ والأُخرى الطَّويلة، ففي الدَّوراتِ القصيرةِ يتمُّ تعليمُ قراءة القرآن الكريم وحفظِ بعض السُّور وبعضِ الأدعية المختارة، كما يُدرَّسُ فيها ما يحتاجُ إليه المسلمُ في حياته اليوميَّة من العلوم الدِّينيَّة الضَّرورية، ويُمكننا القولُ بأنَّ العلومَ الدِّينيَّةَ المقرَّرةَ في المدارس الإبتدائيَّة والإعداديَّة تُعادلُ في مستواها مستوى العلوم المقرَّرة في الدَّورات القصيرة من غير تعليم القُرآن الكريم.

ولو أُضيفَ تعليمُ القرآن الكريم إلى برنامج الإبتدائيَّة والإعداديَّة كمادَّةٍ مُقرَّرةٍ لَمَا بقيَ حاجةٌ إلى مدارسَ لتحفيظ القرآن الكريم، وهذه هي الطَّريقةُ المثلى حيث يتعلَّمُ الطلَّابُ قراءةَ القرآن الكريم بشكلٍ صحيحٍ قبل المرحلة الثانويَّة.

أمَّا الدَّوراتُ الطَّويلةُ في مدارس تحفيظ القرآن الكريم، فإنَّها تدعمُ البرنامجَ التَّعليميَّ في ثانويَّات الأئمَّة والخُطباء؛ حيثُ يتخرَّجُ منها القُرَّاءُ الذين تعمَّقوا في العلوم الشَّرعيَّة، وإلَّا لا يُمكنُ تخريجُ الموظَّفين الذين يكون لديهم القدرةُ والصَّلاحيَّةُ للإمامة والخطابة، وبهذا تتحقَّقُ الأهدافُ المنصوصُ عليها في قانون توحيد التَّدريس، وما تزالُ الحاجةُ ماسَّةً لمدارس تحفيظ القرآن الكريم إلَّا أن يجريَ تعديلٌ في برنامج ثانويَّات الأئمَّة والخطباء.

وتقومُ ثانويَّاتُ الأئمَّة والخُطباء بدعمٍ من مدارس تحفيظ القرآن الكريم بتأهيل الكادر الذي سيقومُ بأداء الوظائف الدِّينيَّة، كالإمام والمفتي وغيرهم، هذا من ناحية، ومن النَّاحية الأُخرى تقوم بالتَّوعية الدِّينيَّة للمجتمع، فوجودُ هؤلاء يعطي ثقةً للمُجتمع، ولا بُدَّ هنا أن نُنوِّهَ إلى أهمّ واجبات هذه الثَّانويَّات وهي أن تُناضلَ ضدَّ الخُرافات وتقفَ في وجه

---

[12] كان التَّعليمُ الإلزاميُّ في تركيا خمسَ سنواتٍ لا غير، بحيث يستطيع الطَّالبُ الانتقالَ إلى مدارس تحفيظ القرآن بعمرٍ مُبكِّرةٍ تُمكنُه من تعلُّم القرآن الكريم بسهولةٍ.

الأساطير؛ لأنَّ مَنْ يُريدُ إشاعة الخُرافة يبحثُ عمَّن لا يعلم الدِّينَ جيّداً، حتَّى لا يظهر جهلُه، وفي هذه الحالة يستطيع أن يستخفَّ بعقول النَّاس فيطيعونه.

إنَّ ما يُدَرَّسُ في المدارس الحكوميَّة باسم الثَّقافة الدِّينيَّة ليس كافياً فلا بُدَّ من تنسيقٍ جديدٍ يشملُ على وجه الخصوص إعادةَ برنامج ثانويَّات الأئمَّة والخطباء حسب ما ينصُّ عليه قانونُ توحيد التَّدريس. كما ينبغي إعادةُ النَّظر من جديدٍ في مُفردات الموادِّ الدِّينيَّة على ضوء القرآن الكريم، وستكونُ النَّتيجةُ الحتميَّةُ لهذه السِّياسات التَّجديديَّة أن تُصبحَ البلدُ محكومةً بالعقل والعلم.

وبعد أن أصبحَ التَّعليمُ الإلزاميُّ ثماني سنوات، فقد دَخَلَ التَّعليمُ الدِّينيُّ في حالةٍ من الفوضى بل وصلتْ المشاكلُ إلى ذروتها كما هو الحالُ في جميع القضايا المتَّصلة بالتعليم، وهناك مَنْ ينتهزُ الفوضى ويأمُلُ إبعادَ النَّاس عن الدِّين بهذه الطَّريقة أو تطويعَ الدِّين حسب ما تشتهي وتهوى الأنفسُ.

في الحقيقة فلا يُمكنُ لأحدٍ أن يقفَ دون توجُّهِ النَّاس إلى الدِّين الصَّحيح، فكلَّما اشتدَّت العداوةُ للدِّين اشتدَّ توجُّهُ النَّاس إليه، وهذه ظاهرةٌ عالميَّةٌ لا ينكرها إلَّا جهولٌ. ولا بُدَّ لنا هنا من أن نذكرَ أنَّ المتوجِّهين إلى الدِّين لا يسلكون سبيلاً واحداً؛ فبعضُهم مُقلِّدون يتَّبعون قادتَهم وعلماءَهم في المسائل الدِّينيَّة.

وهناك مَنْ يخافُ من الدِّين؛ والحقيقةُ أنَّ الدِّينَ لا ينبغي أن يبعثَ على الخوف، بل هو مُرشدٌ للإنسان إلى أقوم الطُّرق وداعيٌ له إلى سعادة الدَّارين. إنَّ ما ينبغي الخوفُ منه حقَّاً هو التَّعليمُ الدِّينيُّ الخاطِئ أو الناقص، وإذا لم يتمَّ التَّعديلُ والتَّنسيقُ في مفردات الموادِّ الدِّينيَّة لثانويَّات الأئمَّة والخُطباء فسيمنعُ ذلك تعليمَ الدِّين الصَّحيح النَقيّ للنَّاس، وسيزدادُ كنتيجةٍ حتميَّةٍ لذلك في المجتمع عددُ أولئك الذين يُسمُّون أنفسَهم "علماء" في حين أنَّهم يستغلُّون في الحقيقة حاجةَ النَّاس إلى تعلُّم الدِّين، وربَّما يتَّخذُهُمُ النَّاسُ وسطاءَ بينهم وبين الله تعالى. وهذه هي الكارثةُ الحقيقيَّةُ.

6. الدَّولة والأحزاب السِّياسيَّة :

ينصُّ الدُّستورُ التُّركيُّ على حظر إقامة أيِّ حزبٍ سياسيٍّ يهدفُ إلى جعل الدَّولة تحت سيطرة شخصٍ أو مجموعةٍ مُعيَّنةٍ، كما ينصُّ على ضمان عدم هيمنة طبقةٍ اجتماعيَّةٍ على غيرها من الطَّبقات، أو تمييزِ طبقةٍ مُعيَّنةٍ على غيرها حسب اللُّغة أو العرق أو الدِّين، أو إقامة نظامٍ سياسيٍّ يعتمدُ على تلك المفاهيم.[13] هكذا أُقِرَّ الدُّستورُ، وبالرَّغم من ذلك فإنَّ هناكَ بعضَ الحُكَّام الذين يتصدَّرون المشهد العامَّ فيجعلون من أفكارهم أساساً في تصريف شؤون الدَّولة ويُجبرون النَّاسَ على قبولها، وهذا التفرُّدُ السُّلطويُّ لهؤلاء الحُكَّام مهَّدَ الطَّريقَ لإقامة أحزابٍ تتمايزُ بالعرق واللُّغة والدِّين.

ثمَّ ما يلبثُ إلَّا أن تؤسَّسَ أحزابٌ أُخرى مخالفةٌ للأحزاب الأولى فتتكاثرُ الأحزابُ، ولكلِّ واحدٍ منها أتباعٌ يُشكِّلون القاعدة الخاصَّةَ لكلِّ حزبٍ، ويتسلَّحُ الأتباعُ بالأفكار والرُّؤى الخاصَّة بحزبهم، ويعملون جميعاً على تحقيق هذه الأفكار، ويترتَّبُ على كثرة الأحزاب واختلاف مشاربها ورؤاها وبرامجها عواقبُ وخيمةٌ على المجتمع، تتمثَّلُ في الاحتكاكات بين الأحزاب، وانقسام المواطنين إلى فرقٍ وجماعات، فتتلاشى الطَّاقاتُ وتُهدَرُ إمكانيَّاتُ البلد بسرعةٍ غيرِ مُتوقَّعةٍ.

إنَّ مُحاولةَ الحُكَّام فرضَ أفكارهم على الآخرين سببٌ في توتُّر الجوِّ العامِّ، ممَّا يسمحُ بقيام مُعارضةٍ قويَّةٍ غيرِ سلميَّةٍ تحاولُ بكلِّ قوَّةٍ خلعَ هؤلاءِ الحُكَّام؛ وهذا يعني حدوثَ صراعاتٍ طائفيَّةٍ أو عرقيَّةٍ أو مذهبيَّةٍ، حيثُ تتنافسُ كلُّ طائفةٍ على الوصول إلى الحُكم، ولذلك يُناضِلُ كثيرٌ من الأحزاب السِّياسيَّة حتَّى يجعلَ من أفكاره حُكماً بدلاً من أن تتنافسَ في تقديم الخِدْمات للمُواطنين، وفي مثل هذه البيئة لا مفرَّ من حدوث صراعاتٍ مُستمرَّةٍ.

ولا يُمكنُ الوصولُ إلى نتائجَ إيجابيَّةٍ إلَّا بإزالة الأسباب الاجتماعيَّة والحقوقيَّة التي مهَّدتْ لتلك البيئة، كما أنَّ محاولةَ وضعِ حدٍّ لعدد الأحزاب السِّياسيَّة في 1980/9/12 م باءت بالفشل، فتكاثرتِ الأحزابُ السِّياسيَّةُ فلم يعد بمقدور أحدها تحقيقُ أغلبيَّةٍ برلمانيَّةٍ،

---

[13] المادَّة: 14 و 69 من الدُّستور لجمهوريَّة تركيا.

فأصبَحَ الحزبُ الذي يحظى بـ 20% من أصوات الناخبين يُكلَّفُ بتشكيل الحكومة، ولا يُمكن للأحزاب السِّياسيَّة أن تتنافس في خِدْمة المواطنين إلَّا إذا ابتعدت عن مواقفها الأيديولوجيَّة.

إنَّ تأسيسَ الأحزاب القائمة على أساسِ الدِّين قضيَّةٌ في غاية الأهميَّة؛ لأنَّ جُلَّ الصِّراع الموجود في تركيا موجَّهٌ ضدَّ الدِّين الإسلاميّ؛ وإليكَ تفصيلُ ذلك:

أ. الحزب القائمُ على أساس الدِّين :

نرى أنَّ مُصطلحَ "الحزب الإسلامي" مصطلحٌ غيرُ صحيح، فليس هنالك حزبٌ إسلاميٌّ، ولكن يُمكنُنا أن نُسمِّيه بـ "حزب المسلمين"، وبين التَّسميتين بونٌ شاسعٌ؛ فالإسلامُ دينٌ هدفُه هدايةُ النَّاس إلى طريق السَّعادة في الدَّارين، فلا يجوزُ أن يكونَ وسيلةً لنيل المنافع الدُّنيويَّة، وقد قالَ كلُّ واحدٍ من الأنبياء والرُّسُل: «**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**» (**الشعراء، 26 / 180**).

الذين يُعارضون الدِّين خلطوا في الحقيقة بين الأمرين؛ تبليغِ الدِّين والصِّراعِ على السُّلطة، ومن هنا نعرفُ أهمِّيَّةَ الحوار الذي جرى بين موسى عليه السَّلام وفرعون مصر، قال اللهُ تعالى: «**وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**» (**الأعراف، 7 / 104–105**). وقال: « **أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؛ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ؛ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ؛ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ؛ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ؛ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ؛ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**» (**الشعراء، 26 / 17–26**).

نرى في هذه الآيات بوضوحٍ أنَّ فرعون يُحاولُ تقديمَ موسى كمَنْ يُصارع على السُّلطة بالرَّغم من وضوح ما يُريده موسى وهو أن يُرسِل معه بني إسرائيل، فيقول: «**فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**». أمَّا الملأُ من قوم فرعون: «**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ**

مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى» (طه، 20 / 63). وفرعون يعرفُ جيّداً أنَّ موسى عليه السَّلام لا يُريدُ منه غيرَ أن يُرسلَ معه بني إسرائيل، لأنَّ قولَ الحقِّ ليس من مصلحته، لذلك تصرَّفَ كأنَّه لمسَ أنَّ لموسى أهدافاً أُخرى، فبدأَ بتغرير شعبه وتأليبهم عليه.

لذا ليسَ من الصَّحيح أن يكون الإسلامُ وسيلةً للوصول إلى الحُكم، لأنَّ هذا يؤدّي إلى أن يتَّخذَ الحُكَّامُ مواقفَ تلقائيَّةً تتميَّزُ بالسَّلبيَّة تجاه الإسلام لكي لا يفقدوا ما في أيديهم من السُّلطة السِّياسيَّة، كما أنَّ استخدامَ الإسلام وسيلةً للوصول إلى الحُكم يُحرِّكُ ويُنشِّطُ المولعين الطَّامحين إلى السُّلطة، وفي نهاية المطاف يُعلنُ البعضُ عداءَه للإسلام ليحفظَ عرشَه، هذا من ناحية، ومن النَّاحية الأُخرى يجعلُ بعضُ الطَّامحين من الدِّين الإسلاميّ وسيلةً لتحقيق الأهداف في الوصول إلى الحُكم، والنَّتيجةُ أنَّ كِلا الطَّرفين شكَّلا مانعاً من التَّفكير الصَّحيح حول الإسلام.

لا يوجدُ حزبٌ للإسلام، ولكن من الممكن أن يكون للمسلمين حزبٌ أو أحزابٌ كثيرةٌ، وهم يطرحون برامجَهم، حيث يستطيعون أن يُثبتوا من خلالها أنَّهم على قدر المسؤوليَّة، ويشتركوا مع الأحزاب الأخرى في المنافسة ليصبحوا حزباً حاكماً.

والحزبُ الفائزُ له الحقُّ في تشكيلِ الحكومة، يحكُمُ باسمه وليس باسم الدِّين، فإنْ أحسنَ في الحُكم فلإدارته أجرُها، وإنْ أساءَ فلإدارته وزرها، ذلكَ أنَّه لا يصدُرُ من الإسلام خطأٌ، أمَّا المسلم فمنَ الممكن أن يُخطئ.

حُريَّةُ الدِّين قضيَّةٌ مُهمَّةٌ للغاية، والاعترافُ بحريَّة الاعتقاد دون حريَّة الدِّين لا يعني شيئاً، لأنَّ الاعتقادَ من عمل القلب، أمَّا الدِّين فليسَ كذلك، وعند إطلاق كلمة "الدِّين" يُفهَمُ منها جميعُ أوامره ونواهيه. فالحُريَّةُ الدِّينيَّةُ تعني أنْ يحيى الإنسانُ حسب ما يعتقد، والإسلامُ يُوفِّرُ للإنسان أن يحيى حسَبَ ما يعتقدُ، ويُحرِّم الضُّغوطَ على دينٍ ما أو تحقيره أو إهانته.

وفي ظلِّ هذا الفهم أذنَتْ الدَّولةُ العُثمانيَّةُ بفتح الخمَّارة وتربية الخنازير لغير المسلمين، ومنعتْ المسلمين عن ذلك، وقد وجَدَ غيرُ المسلمين حريَّتَهم الدِّينيَّة في ظلِّ الدَّولة

العثمانيَّة، لذا لجأَ إليها اليهودُ الذين هربوا من إسبانيا وعاشوا أسعَدَ أيَّام حياتهم في ظلّها، وقد أنشأَ اليهودُ مؤسَّسةً خيريَّةً باسم (المئة الخامسة) لتكونَ ذكرى لتلك الأحداث.

أمَّا اليوم فلم يبقَ من ذلك الجوّ المتسامح شيئاً؛ لأنَّ الملحدين وغيرَ المتديّنين من أصحاب الصَّدارة في الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة قد نبذوا التَّسامح وسلكوا طريق التَّطرُّف والتَّشدُّد، وقد تظَاهَرَ بعضُ الملحدين بأنَّهم مُسلمون، فازدادتْ المشاكلُ تعقيداً.

إنَّ الأحزابَ السّياسيَّةَ التي أُسِّسَتْ منذ العام 1946 م أصبحتْ تتنافسُ في استغلال الشُّعور الدّينيّ عند الشَّعب للحصول على مزيدٍ من الأصوات الانتخابيَّة، لكنَّ تلك الأحزاب ليست سواءً فمنها ما يُدارُ من أصحاب النَّوايا الحسنة، كما أنَّ منها مَنْ تُريدُ استغلال الشُّعور الدّينيّ للوصول إلى مبتغاها.

وقد جاء في المادَّة 24 من الدُّستور التركيّ ما يلي: "ليس من حقّ أحدٍ أن يستغلَّ الدّينَ أو الشُّعورَ الدّينيَّ أو الأماكنَ الدّينيَّةَ".

فاستغلالُ الدّين للوصول إلى السُّلطة نفاقٌ، ومن الصَّعب أن يُميَّزَ بين النِّفاق وبين التَّديُّن الحقيقيّ، لا سيَّما حينما يحدث الاختلافُ والتَّنازعُ في الأمور الدّينيَّة فتسنحُ الفرصةُ أمام المنافقين للطَّعن في الدّين والإساءة إليه؛ حتَّى إنَّهم ليتَّهمون المؤمنين الحقيقيّين بأنَّهم يستغلّون الدّين، وهذا قلبٌ للحقيقة رأساً على عقب، وهو ما يحدثُ الآن في تركيا.

كما أنَّ هناك مَنْ يُعادي كلَّ ظاهرةٍ دينيَّةٍ باسم العلمانيَّة، ويعملُ جاهداً على إبعاد النَّاس عن الدّين بمنع التَّعليم الدّينيّ باسم الحداثة والمعاصرة، وقد يُبرِّرُ فعلَه بأنَّه ضدُّ الاستغلال الدّينيّ مُتظاهراً أنَّه يحترم الدّين، ظنّاً منه أنَّ هذا الموقف سيُقلّلُ من ردود الفعل الغاضبة عليه، ولكنَّ العاقبة تأتي بعكس ما يريد، حيث تزدادُ ردودُ الفعل حدَّةً كلَّما شَعَرَ المسلمون بنفاقه واستهزائه بهم. وقد كان النِّفاقُ مُشكلةً في عهد النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، كما أخبرنا بذلك القرآنُ الكريم. قال اللهُ تعالى: «**وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**» (**النساء، 4 / 81**).

ومن المعلوم أنَّ الدّينَ عالميٌّ لا يقف عند حدود الزمان والمكان، وبعبارةٍ أُخرى فإنَّ للدّين قواعدَ لا تتغيَّرُ وإنْ تغيَّرتِ الأماكنُ والأزمنةُ، أمَّا سياساتُ الدُّول وقوانينُها فإنَّها تتغيَّرُ حسب الزمان والمكان وفقاً للاحتياجات والظروف الطَّارئة، والدَّولةُ المعترفة بحريَّة الدّين فإنَّها تُنظِّمُ قوانينَها وفقاً لما يتطلَّبُه مفهومُ الحريَّة الدّينيَّة، فليس من المنطقيّ أن تفرضَ الدَّولةُ قانوناً يُلغي شعيرةً دينيَّةً، لأنَّه من المستحيل أن يقبل المتديّنُ التعديلَ في دينه.

ولمزيدٍ من التَّوضيح نضربُ هذا المثال: وَرَدَ في الآية 31 من سورة النُّور الأمرُ للمؤمنات بتغطية رؤوسهنَّ، وهو أمرٌ قد لقي قبولاً عند كلّ المؤمنين والمؤمنات منذ نزول الآية حتى يومنا هذا بدون أدنى خلاف، وجلُّ المسلمات في تركيا والبلدان الأخرى يُغطّينَ رؤوسَهنَّ، لذلك فإنَّ منعَ المسلمات من غطاء رؤوسهنَّ هو تعدٍّ على الحُريّة الدّينيَّة، وقد أحدَثَ ذلك احتجاجاتٍ واسعةً في بعض البلدان، وما تزالُ تلك الاحتجاجاتُ وستبقى ما دامَ القرآنُ الكريمُ موجوداً، كما أنَّه ما يزالُ هناك مَنْ يستغلُّ هذه القضيَّةَ ما دامت الاحتجاجاتُ موجودةً، حيثُ يُدافعُ حزبٌ عن غطاء المسلمات رؤوسهنَّ ويُعارضُ ذلك حزبٌ آخر !

إنَّ محاولةَ الملحدين وغيرِ الملتزمين الهادفين إلى حصرِ الدّين في الضَّمائر والقلوب دون إبراز شعائره هي طريقُهم لإيجاد بيئةٍ مُناسبةٍ تُطبَّقُ فيها العلمانيَّة كنظامٍ لادينيٍّ مُعادٍ للدّين، فلا يبقى بعدئذٍ مجالٌ للعقل أن يُفكّرَ إلَّا وفقاً لما تهواه الأنفس.

وفي هذه الحالة المضطربة تُعقَدُ الانتخاباتُ، ويُصوّتُ النَّاخبون للأحزاب حسب الشُّعور والعاطفة، لا حسبَ ما تُقدّمُه تلك الأحزابُ من خدماتٍ للمواطنين لتطوير البلد؛ فما يهمُّ أكثرَ النَّاخبين هو أن يُوفِّرَ الحزبُ الفائزُ للمُتديّنين الإمكانيَّاتِ اللازمةَ لأداء شعائر الدّين فقط، أمَّا الملحدون ومَنْ معهم من المنافقين فأكبرُ همِّهم منعُ النَّاس عن ذلك وإبعادُهم عن الدّين. وبهذا يفوز الطَّرفان المتناقضان من الأحزاب ويدخلان البرلمان للعمل معاً ويترتَّبُ على ذلك فسادٌ سياسيٌّ عريضٌ.

أمَّا المخلصُ من السّياسيّين إمَّا أن يختفيَ كُليَّاً بسبب مواصلته خدمة المواطنين بإخلاص، أو أن يُغيّرَ موقفَه السّياسيَّ حسب المصالح.

حسب مفهومنا للدَّولة، لا يُمكنُ استغلالُ الدِّين ما دامت الدَّولةُ لا تتدخَّلُ في أمور الدِّين، وبهذا لا نُلقي بأيدينا إلى التَّهلكة، وفي حال كهذا يُفتحُ الطَّريقُ أمام المخلصين من السِّياسيِّين لخدمة الدَّولة، ويقلُّ عددُ الأحزاب السِّياسيَّة لأنَّه لا يبقى هناك شعورٌ دينيٌّ ليُستغلَّ، كما تتولَّدُ الحاجةُ لتدريب السِّياسيِّين المخلصين، وهو أمرٌ ليس بسهلٍ؛ إذ إنَّه يحتاج إلى المعرفة الكافية والخلفيَّات الثقافيَّة والكوادرِ المؤهَّلةِ.

أمَّا استغلالُ الشُّعور الدِّينيّ فليس بأمرٍ صعبٍ، فيلجأُ إليه العابثون فيفوزُ فيه أصحابُ الأصوات العالية والمتفنِّنون في الكذب وخداع النَّاس.

ب. الجمهوريَّة الإسلاميَّة مثل إيران :

لا يقبلُ الدِّينُ الإسلاميُّ الرَّهبنة، فجميعُ النَّاس متساوون عند الله تعالى، لكنَّ الأمرَ مُختلفٌ في المذهب الشِّيعي، فهم مختلفون فيمَنْ يتولى حُكم الدَّولة. فالرَّأيُ السَّائدُ عندهم أنَّ الإمامَ أي رئيسَ الدَّولة لا بُدَّ من أن يُعيَّن من قبل النّبيّ صلى الله عليه وسلم وأن يكونَ معصوماً من جميع الذنوب.

وقد اتفق الشِّيعةُ على أنَّ هذا الشَّخصَ هو عليٌّ رضي الله عنه، وبناءً على هذا فإنَّ رئاسةَ الدَّولة عندهم ليستْ وظيفةً سياسيَّةً بل هي مقامٌ دينيٌّ، وإليك رأيهم في الإمام أي رئيس الدَّولة:

"إنَّ الإمامةَ لا تكونُ إلَّا بالنصِّ من الله تعالى على لسان النَّبيِّ أو لسان الإمام الذي قبله، وليست هي بالاختيار والانتخاب من النَّاس، فليس لهم إذا شاؤوا أن يُنصِّبوا أحداً نصَّبوه، وإذا شاؤوا أن يُعيّنوا إماماً لهم عيَّنوه."[14]

والخصائصُ التي يمتازُ بها الإمامُ عند الشِّيعة كالتَّالي:

"إنَّ الإمامَ كالنَّبيِّ يجبُ أن يكونَ معصوماً من جميع الرَّذائل والفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَن، من سنِّ الطُّفولة إلى الموت، عمداً وسهواً، كما يجب أن يكونَ معصوماً من السهو

[14] العقائد الإماميَّة، محمد رضا المظفر، ص. 65

والخطأ والنِّسيان، لأنَّ الأئمَّةَ حفَظَةُ الشَّرع والقوَّامون عليه حالُهم في ذلك حالُ النَّبيّ، والدَّليل الذي اقتضانا أن نعتقدَ بعصمة الأنبياء هو نفسُه الذي يقتضينا أن نعتقدَ بعصمة الأئمَّة بلا فرقٍ."[15]

ويُعبّرُ الشَّيعةُ في إيران عن صفات الإمام ومعارفه على النحو التَّالي:

"إنَّ الإمامَ كالنَّبيّ يجبُ أن يكونَ أفضلَ النَّاس في صفات الكمال من شجاعةٍ وكرمٍ وعفَّةٍ وصدقٍ وعدلٍ، ومن تدبيرٍ وعقلٍ وحكمةٍ وخلقٍ، والدَّليلُ في النَّبيّ هو نفسُه الدَّليلُ في الإمام . أمَّا علمُه فهو يتلقَّى المعارفَ والأحكامَ الإلهيَّةَ وجميعَ المعلومات من طريق النَّبيّ أو الإمام من قبله، وإذا استجدَّ شيءٌ لا بُدَّ أن يَعلَمَه من طريق الإلهام بالقوَّة القدسيَّة التي أودَعَها اللهُ تعالى فيه، فإن توجَّهَ إلى شيءٍ وشاء أن يعلَمَه على وجهه الحقيقيّ، لا يُخطئُ فيه ولا يشتبه، ولا يحتاج في كلّ ذلك إلى البراهين العقليَّةِ ولا إلى تلقينات المعلِّمين، وإن كان علمُه قابلاً للزيادة والاشتداد. رغم أنَّهم لم يتربَّوا على أحدٍ، ولم يتعلَّموا على يد مُعلّمٍ من مبدأ طفولتهم إلى سنّ الرُّشد، حتَّى القراءة والكتابة، ولم يثبتْ عن أحدهم أنَّه دَخَلَ الكتاتيبَ أو تتلمذَ على يد أستاذ في شيءٍ من الأشياء، فإنَّ لهم منزلةً علميَّةً لا تُجارى، وما سُئِلوا عن شيءٍ إلَّا أجابوا عليه في وقتِه، ولم تمرَّ على ألسنتِهم كلمةُ (لا أدري)، ولا يُؤجّلون الجوابَ من أجل المراجعة أو التأمُّل أو نحو ذلك."[16]

أمَّا عقيدةُ الشّيعة في طاعة الإمام فهي كالتَّالي:

"إنّ أمرَهم أمرُ الله تعالى، ونهيَهم نهيُه، وطاعتَهم طاعتُه، ومعصيتَهم معصيتُه، ووليَّهم وليُّه، وعدوَّهم عدوُّه، ولا يجوز الرّدُّ عليهم، والرَّادُّ عليهم كالرَّادِّ على الرَّسول والرَّادُّ على الرَّسول كالرَّادِّ على الله تعالى، فيجبُ التَّسليمُ لهم والانقيادُ لأمرهم والأخذُ بقولهم."[17]

إنَّ هذا الرَّأيَ لا يُمكنُ أن يُقبلَ عند أهل السُّنَّة والجماعة، وهو المذهبُ السَّائدُ في تركيا؛ فرئاسة الدَّولة عندهم مقامٌ سياسيٌّ؛ إذ لا يوجدُ آيةٌ ولا حديثٌ ينصُّ على أنَّ رئاسةَ

---

[15] العقائد الإماميَّة، محمد رضا المظفر، ص. 66

[16] العقائد الإماميَّة، محمد رضا المظفر، ص. 66

[17] العقائد الإماميَّة، محمد رضا المظفر، ص. 66

الدَّولة مقامٌ دينيٌّ. وما يُقوله الشِّيعةُ في حقِّ أئمَّتهم لا يقولُه أهلُ السُّنَّة والجماعة في حقِّ الأنبياء عليهم السَّلام. يقول اللهُ تعالى في القرآن الكريم: «**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**» (**آل عمران، 3 / 144**). والرَّسولُ في اللُّغة العربيَّة يُقالُ لمتحمِّل القَول والرِّسالة.[18] يعني الرَّسول هو مَنْ كُلِّفَ بتبليغ قولِ شخصٍ إلى شخصٍ آخر بدون زيادةٍ ولا نقصانٍ.[19] وفي الاصطلاح الدِّينيّ: الرَّسولُ هو مَنْ اختارَه اللهُ تعالى لتبليغ أحكامه إلى النَّاس.[20] وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ وظائفَ الرُّسل على ثلاثةِ أنواع؛ الأولى: التَّبليغ. يقول اللهُ تعالى: «**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**» (**النحل، 16 / 35**)؛ « **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**» (**المائدة، 5 / 67**). والثَّانية: بيانُ أوامر الله تعالى. قال اللهُ تعالى: «**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**» (**إبراهيم، 14 / 4**). والثَّالثة: التَّبشير والإنذار؛ يقول الله تعالى: «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**» (**سبأ، 34 / 28**).

فليسَ من حقِّ الرَّسول أن يُكرهَ النَّاسَ على قبول رسالته، وقد أعطى اللهُ تعالى للنَّاس الحريَّةَ التَّامَّةَ في قبول دينه. قالَ اللهُ تعالى: «**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ؛ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**» (**الغاشية، 88 / 21–22**).

ولا يُعطى للرُّسل شخصيَّةٌ فوق العادة، فهم بَشَرٌ مُصطَفَون، وقد أيَّدهُمُ اللهُ تعالى بالمعجزات، ومعجزةُ كلِّ رسولٍ تُثبتُ أنَّه مُرسَلٌ من الله تعالى، وهذا يُشبهُ كما لو أنَّ شخصاً وافداً قال يوماً: "إنِّي سفيرٌ لأمريكا لدى أنقرة"، فمِنَ الطَّبيعي أن تطلُبَ الحكومةُ منه وثيقةً تُثبتُ أنَّه مُرسَلٌ من قبل الإدارة الرسميَّة لبلاده، وهكذا هي مُعجزةُ الرَّسول، فهي وثيقةٌ تدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى أرسلَه إلى النَّاس، فسُمِّيتْ مُعجزةً لأنَّ النَّاس يعجزون عن ترتيب مثل هذه الوثيقة.

---

[18] مُفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني، مادة: رسل.

[19] المجلَّة، مادَّة: 1450

[20] التَّعريفات للجرجاني ص. 110

رسولُنا محمد صلى الله عليه وسلم بشرٌ مثلُنا، والفرقُ الوحيدُ كونَه رسولَ الله. قال اللهُ تعالى: «**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**» (**الكهف، 18 / 110**).

وهكذا وُجِدَ فريقان مختلفان؛ أحدُهما الشِّيعة الذين يُقدِّسون أئمَّتَهم، والآخرُ أهلُ السُّنَّةِ والجماعة الذين يرون أنَّ الرَّسولَ بشرٌ كأيِّ بشرٍ إلَّا أنَّه يُوحى إليه. الأوَّلُ يرى أنَّ رئاسةَ الدَّول مقامٌ دينيٌّ؛ أمَّا الثَّاني فيرى أنَّها وظيفةٌ سياسيَّةٌ. كما أنَّ أهلَ السُّنَّة والجماعة لم يُسمُّوا الدَّولةَ بالدَّولة الإسلاميَّة، بل سمَّوها بالدَّولة العبَّاسيَّة والدَّولة السَّلجوقيَّة والدَّولة العُثمانيَّة.

وفي عهد الخُلفاء الرَّاشدين لم يكنْ للدَّولةِ اسمٌ، وإذا دلَّ هذا على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على أنَّ تسميةَ الدَّولة بالدَّولة الإسلاميَّة ليست من الدِّين، ومن الخطأ البيِّنِ اعتبارُ الشِّيعة مثلَ أهل السُّنَّة والجماعة في النَّظرة إلى الدَّولة ورئيسها مع وجود هذا الفرق الشَّاسع، ومَنْ لا يعرفُ هذا الفرقَ في تركيا فإنَّه يدعو إلى إقامة دولةٍ إسلاميَّةٍ مثل إيران !

7. تكاتف الجيش والشَّعب :

لا يُمكنُ تخيُّلُ جيشٍ دون شعب، وليس من العادة أن يكونَ الشَّعبُ دون جيشٍ، فهما كاللَّحم والعظم يحتاج أحدُهما للآخر، وإذا دخلتْ مادَّةٌ غريبةٌ بين اللَّحم والعظم يحدثُ ألمٌ شديدٌ، وكذلكَ دخولُ العناصر الأجنبيَّةِ بين الجيش والشَّعب، ونقصِدُ بالعناصرِ الأجنبيَّة المنافقين، وهؤلاء لا يُفيدون الجيشَ ولا الشَّعب، بل يتظاهرون بأنَّهم مؤيّدون للجَّيش تارةً، وبأنَّهم مُؤيّدون للشَّعب تارةً أُخرى، فهم مُذبذبون بين ذلك، يُحاولون فصلَ الجَّيش عن الشّعَب.

إنَّ الجيشَ ورجالَ العلم _بطبيعة الحال_ يقبلون الحقائقَ بسهولةٍ؛ لأنَّهم بعيدون عن الكذب والتزييف، وهم لا يخدعون أحداً، لذا يظنُّون أنَّ أحداً لا يُمكنُ أن يخدعَهم، وحين يعرفون أنَّهم قد خُدِعوا يكونُ الأوانُ قد فات!

إنَّ المنافقين يُظهرون الفوضى في كلِّ فرصةٍ لأنَّهم يُحبُّون الصَّيدَ في الماء العكر، ومن الصَّعبِ إقناعُ الشَّعب بأنَّ المنافقين غيرُ صادقين، ولهذا السَّبب ينبغي أن يتمَّ التَّصدي لهم بحذرٍ وبعيداً عن العُنف وبشكلٍ مُستمرٍّ، وأن لا يكونَ هناك ثمَّةَ تطبيقاتٌ خاطئةٌ تُعطي لهم فرصةً لتحقيق آمالهم في إشاعة الفوضى، وفي هذا الصَّدد يجبُ على الدَّولة أن تتصرَّفَ بالحِكمة وأن تمنعَ المنافقين من إشاعةِ ما يمنعُ التَّكاتفَ بين الجيش والشَّعب، فالمنافقون يبذلون كلَّ ما في وسعهم ليستغلُّوا النَّوايا الحسنة للجيش الذي يتَّخذُ عادةً موقفَ عدم الانحياز لأيِّ طرفٍ، بالإضافة إلى استقطابهم لبعض رجال العلم في صفوفهم لإضافة مزيدٍ من الشَّرعيَّة على تحرُّكاتهم، فيُحدثون بسبب أفعالهم تلك الإرباكَ والأزماتِ في البلد.

وقد أمَرَنا اللهُ تعالى في آياتٍ كثيرةٍ أن نأخُذَ حذرنا تجاه المنافقين، ومن تلك الآيات قولُه تعالى: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ؛ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ؛ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**» (آل عمران، **3 / 118–120**).

وقد عانى النَّاسُ من المنافقين أكبرَ المعاناة عبر التَّاريخ، وقد قيل عنهم "المنافقون" لأنَّهم يتظاهرون بالإيمان مع حقيقة عدم وجود الإيمان في قلوبهم، ومنهم مَنْ يُبالغُ في التَّظاهر بالإيمان إلى درجةِ أنَّه يُعجِبُ المؤمنين، كما كان حالُهم في عهد النَّبيّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام. قال اللهُ تعالى: «**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**» (**المنافقون، 63 / 4**).

وهناك عاملٌ يُساعدُ مَنْ يُريدُ إيقاعَ العداوة بين الجيش والشَّعب، وهو عاملٌ يجبُ أن يُؤخَذَ بعين الاعتبار؛ فثكناتُ الجيش ومساكنُهم وأماكنُ التَّرفيه والرَّاحة الخاصَّة بهم كلُّها مُنفصلةٌ عن المجتمع، ولا يُمكنُ أن يكونَ شخصٌ ما فرداً من أفراد الجيش إلَّا إذا وصَلَ سنَّ النُّضج والرُّشد؛ فالذُّكورُ من المواطنين يلتحقون بالجيش في فترة التجنيد وهي فترةٌ قصيرةٌ من حياتهم، وتكون علاقتُهم مع مؤسَّسة الجيش حسبَ موقعهم جنوداً كانوا أو ضبَّاطَ احتياطٍ، كلُّ ذلك يكونُ بانضباطٍ عسكريٍّ، وهذا النَّمطُ من التَّجنيد يُحدِثُ مسافةً بين الجيش والشَّعب بحيث يمنعُ التكاتفَ بينهما، حتَّى وإنْ بدا أنَّ الجيش يُدافعُ عن الشَّعب من التأثيرات الخارجيَّة.

والأصلُ أن تكونَ مراكزُ تدريب الجيش قريبةً نسبيَّاً من المدن، بحيث تُمكِّنُ أفرادَ الجيش من قضاءِ أوقات فراغهم مع أبناء وطنهم ومشاركتهم فعاليَّاتهم الاجتماعيَّة والوطنيَّة، فأفرادُ الجيش هم جيشُ الشَّعب؛ فينبغي أن يتكاتفَ الشَّعبُ ويتعاونَ مع جيشه على الدَّوام، وهذا أمرٌ مُهمٌّ للغاية، وبهذا يُمكنُ للشَّعب أن يعرفَ جيشَه، وكذلك الجيش يعرفُ شعبَه بدون أن تدخُلَ بينهما العناصرُ الأجنبيَّةُ.

إنَّ ما دعا الجيش إلى الإفراطِ في إبعاد أفراده عن الشَّعب هو حمايتُهم من الاختراق الخارجيّ، لكنَّ الجيشَ التُّركيَّ هو جيشٌ عريقٌ، يملك في هذا الصَّدد أبعاداً مُتقدِّمةً وأصيلةً، فلا يقفُ عاجزاً عن تجاوز هذه الحالة.

إنَّ التَّكاتفَ بين أفراد الجيش والشَّعب يُشكِّلُ مانعاً أمام المنافقين من تحقيق آمالهم في الفصل بينهما، لذلك سيبحثون عن طريقٍ آخر ويبذلون جهدَهم لإيقاع العداوة بينهما، وهنا يتَّضحُ بصورةٍ جليَّةٍ أهمِّيَّةُ تكاتف الجيش مع الشعب، وبهذا يتحقَّقُ الهدفُ الأساسيُّ

من الحرب الدِّفاعيَّة في هذا العصر، وهي ليست دفاعاً عن الحدود فحسب بل هي دفاعٌ عن الوطن كلِّه كما يتطلَّبُ ذلك الواقع، وبذلك لا يبقى لأعداء الوطن فرصةُ لينتهزوها، وقد تبيَّنَت أهمِّيَّةُ ذلك في عمليَّات مكافحة الإرهاب.

وهنا يجبُ الإشارةُ إلى أنَّ بعضَ السِّياسيِّن والمؤسَّسات الإعلاميَّة ومراكز القوى الخفيَّة في الدَّولة إذا فشلوا أو لم تلقَ آراؤُهم قبولاً عند الشَّعب فإنَّهم يمكرون ويُحمِّلون المسؤوليَّة للجيش بالكلمات الضمنيَّة السَّاخرة بهدف إبعاده بذلك عن الشَّعب وحماية مصالحهم، لكن إذا تمَّ التكاتفُ بين الجيش والشَّعب بشكلٍ صحيحٍ فإنَّ آمالَ المنافقين ستبقى حبيسةَ أنفسهم ولن تتحقَّقَ.

الباب الثَّاني: الثَّيوقراطية والعلمانيَّة في الكتاب المُقدَّس والقرآن الكريم

إنَّ القضايا الأساسيَّة في تركيا مثل السِّياسة والاقتصاد والقانون وعلاقتها بالدِّين تُدرَّسُ ــبوجهٍ عامــ بالأسلوب المعتمد عند النصارى واليهود. فالأكثريَّةُ من المتخصِّصين في هذه المجالات إمَّا أنَّهم لا يملكون معرفةً حول نظرة الإسلام إلى تلك الموضوعات أو أنَّ معلوماتِهم فيها غيرُ صحيحة. وكذلك فإنَّ مسألتي العلمانيَّة والثيوقراطيَّة لم تُدرَّسا حسبَ النَّظريَّات الإسلاميَّة؛ لأنَّهما مُصطلحان ظهرا في البُلدان النصرانيَّة.

نهدف في هذا الباب إلى تصحيح ما يتعلَّقُ بذلك المصطلحين من المفاهيم الخاطئة:

1. الكتاب المقدَّس والثيوقراطية :

الثِيوقراطيَّة تعني حُكمَ الكَهَنَة، أو الحكومة الدِّينيَّة. تتكوَّنُ كلمةُ ثيوقراطيَّة من كلمتين إحداهما "ثيو" وتعني الدِّين والأُخرى "قراط" وتعني الحُكم.[21] وعليه فإنَّ الثيوقراطيَّة هي نظامُ حُكمٍ يستمدُّ الحاكمُ فيه سلطتَه مباشرةً من الإله، حيث تكونُ الطبقةُ الحاكمةُ من الكهنة أو رجال الدِّين الذين يعتبرون أنفسَهم مُوجَّهين من قبل الإله فهم يمثلون لتعاليمَ سماويَّةٍ، وبناءً على ذلك تكون طاعةُ السُّلطان طاعةً للإله وكذلك العصيان.

وقد وُجِد للثيوقراطيَّة أدلَّةٌ في الكُتب المقدَّسة، أمَّا القُرآن الكريمُ فلا يوجدُ فيه دليلٌ على مثل هذا النظام، ولا يقبلُه أصلاً.

أ. النُّصوص الواردة في الكتاب المقدَّس والتي يُستدلُّ بها على ثيوقراطيَّة الدَّولة:

الكتابُ المقدَّسُ يتكوَّنُ من العهدين؛ القديم والجديد. التوراة هي العهد القديم، والإنجيل هو العهد الجديد. يوجد في الإنجيل نصوصٌ تُفيدُ بثيوقراطيَّة الدَّولة، أمّا في التوراة لم يأتِ إلا عبارةٌ واحدة؛ جاء فيها أنَّ سليمان عليه السَّلام قال: " يَا ابْنِي، احْشَ الرَّبَّ وَالْمَلِكَ. لاَ تُخَالِطِ الْمُتَقَلِّبِينَ.[22] وقد جاءَ في الإنجيل أمرٌ بثيوقراطيَّة الدَّولة في موقعين من رسائل بولس وبطرس. قال بولس في رسالته إلى أهل رومية: "لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ، حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً. فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفًا لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَلْ لِلشِّرِّيرَةِ. أَفَتُرِيدُ أَنْ لاَ تَخَافَ السُّلْطَانَ؟ افْعَلِ الصَّلاَحَ

---

[21] ممتاز سويسال، مدخل للدستور: أنقرة، 1968. ص. 16

[22] الأصحَاحُ الرَّابِعُ وَالْعِشرُونَ 21

فَيَكُونَ لَكَ مَدْحٌ مِنْهُ، لأَنَّهُ خَادِمُ اللهِ لِلصَّلاَحِ! وَلكِنْ إِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ فَخَفْ، لأَنَّهُ لاَ يَحْمِلُ السَّيْفَ عَبَثًا، إِذْ هُوَ خَادِمُ اللهِ، مُنْتَقِمٌ لِلْغَضَبِ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّرَّ. لِذلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ، لَيْسَ بِسَبَبِ الْغَضَبِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا بِسَبَبِ الضَّمِيرِ."[23]

وجاء في رسالة بطرس الرَّسول ما يلي: " فَاخْضَعُوا لِكُلِّ تَرْتِيبٍ بَشَرِيٍّ مِنْ أَجْلِ الرَّبِّ. إِنْ كَانَ لِلْمَلِكِ فَكَمَنْ هُوَ فَوْقَ الْكُلِّ، أَوْ لِلْوُلاَةِ فَكَمُرْسَلِينَ مِنْهُ لِلانْتِقَامِ مِنْ فَاعِلِي الشَّرِّ، وَلِلْمَدْحِ لِفَاعِلِي الْخَيْرِ. لأَنَّ هكَذَا هِيَ مَشِيئَةُ اللهِ: أَنْ تَفْعَلُوا الْخَيْرَ فَتُسَكِّتُوا جَهَالَةَ النَّاسِ الأَغْبِيَاءِ. كَأَحْرَارٍ، وَلَيْسَ كَالَّذِينَ الْحُرِّيَّةُ عِنْدَهُمْ سُتْرَةٌ لِلشَّرِّ، بَلْ كَعَبِيدِ اللهِ. أَكْرِمُوا الْجَمِيعَ. أَحِبُّوا الإِخْوَةَ. خَافُوا اللهَ. أَكْرِمُوا الْمَلِكَ."[24]

حول مفهوم الثَّيوقراطيَّة

يقولُ المفكِّران المسيحيَّان جون كالفين وستيفانوس جونيوس بروتوس إنَّ الدِّيانةَ النَّصرانيَّة تأمُرُ بالثيوقراطيَّة.

أ. تأويلات جون كالفين للثيوقراطيَّة :

يقولُ كالفين في تفسير ما وَرَدَ في الكتاب المقدَّس من الأمر بالثيوقراطيَّة: "وحين قالَ بطرس: "أَكْرِمُوا الْمَلِكَ."[25] وسليمانُ لابنه: " يَا ابْنِي، اخْشَ الرَّبَّ وَالْمَلِكَ. لاَ تُخَالِطِ الْمُتَقَلِّبِينَ.[26] كانا يطلبان منَّا شيئاً. فالأوَّلُ يقصدُ الاحترامَ الحقيقيَّ النَّابعَ من القلب مع التعظيم؛ أمَّا الثَّاني فقد ذَكَرَ الملك مع الإله وهذا يدلُّ على أنَّ الإله قد أعطى الملكَ نوعاً من التَّقديس والمجد. وينبغي أن لا ننسى أمرَ بولس الرَّسول، وهو يعني بقوله: " لِذلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ، لَيْسَ بِسَبَبِ الْغَضَبِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا بِسَبَبِ الضَّمِيرِ."[27] أنَّ طاعة الملوك وأولياء العهد والحُكَّام ليس بسبب الخوف منهم بل لا بُدَّ من المعرفة أنَّ طاعتَهم طاعةٌ للإله لأنَّ الملوكَ وأولياءَ العَهد والحُكَّام يستمدُّون حُكمَهم من الإله. يقول بولس: "لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ." لأنَّ مَنْ خالفَ الحُكَّامَ فقد خالفَ ترتيب الإله.

فليعرفِ الكُلُّ أنَّه لا تتحقَّقُ مخالفةُ الحُكَّام إلَّا بمُخالفة الإله، فالحاكم لا ينتقمُ ممَّنْ يُقلِّلُ شأنَه لأنَّه منزوعُ السِّلاح، ولكنَّ الإلهَ مُسلَّحٌ فهو ينتقمُ ممَّنْ يُقلِّلُ شأنَ الحاكم، وأرى أنَّ

---

[23] رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، الأصحَاحُ الثَّالِثُ عَشَرَ 1-5.

[24] رِسَالَةُ بُطْرُسَ الرَّسُولِ الأُولَى، الأصحَاحُ الثَّانِي، 13 – 17

[25] رِسَالَةُ بُطْرُسَ الرَّسُولِ الأُولَى، الأصحَاحُ الثَّانِي، 13 – 17

[26] الأصحَاحُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ 21

[27] رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، الأصحَاحُ الثَّالِثُ عَشَرَ 1-5

كلمة "الطَّاعة" تعني: أنَّه لا ينبغي لأيّ فردٍ من أفراد المجتمع أن يرى في نفسه سُلطةً فيما يتعلَّقُ بعامَّة النَّاس، وأن لا يتدخَّلَ في شؤون الدَّولة والأمور المختصَّةِ بالحُكَّام، أي لا حقَّ لأفرادِ المجتمع بالتدخُّلِ في الشُّؤون الاجتماعيَّةِ العامَّة والإداريَّة.

إذا كانَ في النِّظام العامّ ما يلزمُ إصلاحُه، فصاحبُ السُّلطة الوحيدة في هذا المجال هو الحاكمُ وحده، ولا ينبغي لأحدٍ من أفراد المجتمع أن يتدخَّلَ فيما ليس من وظيفته لئلَّا تحدُثَ اضطراباتٌ، أعني أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أن يقومَ بأمرٍ إلَّا إذا أُمِرَ به، فإذا أَمَرَه الحاكمُ أصبحَ مسؤولاً مُصرَّحاً له بشكلٍ رسميّ.

إنَّ الحُكَّامَ الذين يحكمون وفقاً للمصلحة العامَّة يُمثِّلون حقيقةً سيادةَ الإله، وكذلك فإنَّ الظَّالمين والمستبدّين من الحكَّام فهم مبعوثون من الإله لمعاقبة النَّاس بسبب ذنوبهم، ومع ذلك فإنَّ لهم جلالةً مُقدَّسةً تدلُّ على أنَّهم يستمدُّون سلطتَهم المشروعةَ من الإله.

وإذا كان الشَّخصُ من المسؤولين في الدَّولة فقد زوَّده الإلهُ بالسُّلطة المقدَّسة الرائعة التي أودعها إلى وزراء عدله وقضائه بأمرٍ منه، وحتَّى لو كان ذلك الشَّحصُ أسوأَ شخصٍ وخالياً من المجد والكرم، فإنَّه يستحقُّ التَّعظيمَ والاحترامَ من الشَّعب مثل المقسطين من الحكَّام؛ ومهما كانتْ طبائعُهم فإنَّهم يستحقُّون هذا التَّعظيم والاحترامَ لأنَّ الولاءَ لهم ولاءٌ للدِّين.

ليس علينا أن نُعالجَ المفاسدَ الظَّاهرة، كلُّ ما هو علينا أن نستعينَ بالإله الذي بيده قلوبُ جميع الملوك".[28]

ب. تأويلات ستيفان جينيوس بروتوس للثيوقراطيَّة :

يقول بروتوس في تأويل الثيوقراطيَّة: "الكتابُ المقدَّسُ يحكم بسلطة الإله نفسه، ويحكُمُ الملوكُ بسلطةٍ استمدُّوها من الإله لأنَّ السُّلطةَ الأصليَّةَ للإله، والملوك هم الممثِّلون للإله.[29] و المِلكُ يستمدُّ سُلطتَه من الربِّ الإله ملك الملوك، يستمدُّ المِلكُ السُّلطةَ من الإله لينشرَ عدلَه ويحميَ شعبَه من أعدائه.

28 جون كالفين، مؤسَّسة الدِّيانة النصرانيَّة، الكتاب 4، الباب 20 على إدارة الدَّولة.

29 ستيفان جينيوس بروتوس تاريخ الفكر في الغرب، الطبعة الثانية، أنقرة، 1969. ص. 62

نحن نقرأُ نوعين من العهود في لبس الملوك التاج؛ الأوَّل: بين الإله والملِك والشَّعب ليكونَ الشَّعبُ شعباً لله. والثاني: ما يكون بين الملك والشَّعب ليكون الشَّعبُ صادقاً في الطَّاعة والملكُ عادلاً في الحكم".[30]

الكنيسة والثيوقراطيَّة :

الكنيسةُ هي المؤسَّسةُ الأساسيَّةُ في النِّظام الثيوقراطيّ (أي نظام الحكم الدِّينيّ)، لأنَّ المِلكَ في هذا النظام يُؤمنُ أنَّ الإلهَ هو الذي يُعيّنُ الحكوماتِ والولاة، ويختارُ الموظَّفين، الإلهُ في النَّصرانيَّة عبارةٌ عن الأب والإبنُ والرُّوح القُدُس، والإبنُ هو عيسى، "وقد أُعطِيَ له جميعُ ملكوت السَّموات والأرض".[31] وللكنيسةِ حقُّ التَّصرُّف وإصدار القرارات نيابةً عن المسيح.[32] أمَّا الرُّوحُ القُدُسُ فإنَّه يحمي الكنيسةَ من الأخطاء ويملؤُها بنعم الأب أي الرَّبِّ.[33] وقد جَاءَ في إنجيل متَّى: "وأمَّا الأحدَ عشَرَ تلميذاً فانطلقوا إلى الجليل إلى الجبل، حيث أمرَهم يسوع. ولما رأوه سجدوا له، ولكنَّ بعضَهم قد اشتكى، فتقدَّمَ يسوعُ وكلَّمَهم قائلاً: «دُفِعَ إليَّ كلُّ سُلطانٍ في السَّماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمِذوا جميعَ الأمم وعمِّدوهم باسم الأب والإبن والرُّوح القدس، وعلِّموهم أن يحفظوا جميعَ ما أوصيتُكم به، وها أنا معكم كلَّ الأيَّام إلى انقضاء الدَّهر».[34] ومن هذا النصِّ اكتسبتِ الكنيسةُ سُلطةً قويَّةً، وقد امتدَّت هذه السُّلطةُ حتَّى أنَّه لم يعُدْ أحدٌ يستطيعُ اعتناقَ المسيحيَّة إلَّا بواسطتها؛ فمَنْ أرادَ أن يدخلَ في الدِّين النَّصرانيّ فلا بُدَّ من موافقة الكنيسة، وبعد موافقتها يجبُ عليه التَّعميدُ؛ أي تغميسُه في الماء؛ والتَّعميدُ كمُصطلحٍ نصرانيّ يعني الالتقاءَ مع روحانيَّة عيسى والميلاد الجديد بالروح القُدُس. والتَّعميدُ هو الشَّرطُ الأوَّلُ للدُّخول في الدِّيانة النَّصرانيَّة. والانتقالُ من تبعيَّة كنيسةٍ إلى أُخرى يكونُ بالتَّعميد كذلك ![35]

---

[30] المرجع السَّابق، ص. 63

[31] انظر: إنجيل متَّى، 18

[32] تيمور كوجوك، المرجع السَّابق، ص. 263

[33] تيمور كوجوك، المرجع السَّابق، ص. 256

[34] إنجيل متَّى، 16-20 ، الكتاب المقدَّس العهد الجديد.

[35] تيمور، كوجوك، المرجع السَّابق.

المذهبُ الكاثوليكيُّ هو من أكثر المذاهب النَّصرانيَّةِ أتباعاً، ويرتبطُ هذا المذهبُ ببطرس[36]. والزَّعيمُ الرُّوحانيُّ لهذا المذهب هو البابا، ويُعتبَرُ البابا وكيلَ عيسى وخليفةَ بطرس، والبابا يملكُ سُلطةً معصومةً، والكنيسةُ عالميَّةٌ بحيث تشملُ إدارتُها العالَمَ كلَّه، ولا خلاصَ إلَّا بالكنيسة، وكنيسةُ روما مركزٌ روحانيٌّ لبقيَّة الكنائس. والكنيسةُ محكومةٌ من قبل الرُّوح القُدُس؛ ومنشؤُه من الأب والإبن. وتفسيرُ الأناجيل يكون بيد الكنيسة.[37]

وفي النِّظام الثيوقراطيِّ الكنيسةُ هي التي تقومُ بتعيين المِلكِ والحكومةِ والوالي وكذلك الموظَّفين؛ لأنَّ الكنيسةَ تتحرَّكُ باسم الإله وتتصرَّفُ فيما يختصُّ به. ولكنَّ الكنيسةَ لا تتحمَّلُ المسؤوليَّةَ عن أفعالِها؛ فعقيدةُ أنَّ الرُّوح القُدُس يحمي الكنيسةَ تمنعُ تحميلَ المسؤوليَّة عليها، وعلى هذا فالثيوقراطيَّةُ تُعرَّفُ بأنَّها: "نظامٌ يتركُ الحُكمَ لإرادة الكنيسة، وفي هذا النِّظام تقوم الكنيسةُ بتعيين المِلك والحكومة والموظَّفين".

2. القرآن والثيوقراطيَّة :

لا يوجدُ في القُرآن الكريم حكمٌ خاصٌّ يتعلَّقُ برئيس الدَّولة والمعاونين له من الوزراء وكبار الموظَّفين، كما أنَّه لم يضعْ نظاماً خاصَّاً يتعلَّقُ بإدارة الدولة، كما لم يأتِ من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أمرٌ أو وصيَّةٌ تتعلَّق بهذا الشَّأن، وإذا دلَّ هذا على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على عدم إعطاء القُدسيَّة للحُكَّام، وأنَّهم ليسوا معصومين، أمَّا الثيوقراطيَّة فهي مُخالِفةٌ لِمَا جاءَ في القُرآن الكريم، فهي تعني أنَّ الحُكَّامَ مُقدَّسون ومعصومون وغيرُ مسؤولين عمَّا يفعلون لأنَّهم مُمثِّلون لله ومُشاركون له في الحُكم. وقد اعتبرَ القُرآنُ مثلَ هذا النِّظام شركاً بالله. قال اللهُ تعالى: «**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**» (**الإسراء، 17 / 111**).

ونعرفُ من القرآن الكريم أنَّ النَّاسَ جميعاً مسؤولون عمَّا يفعلون، ولا يخرجُ من هذه القاعدة الأنبياءُ والرُّسل. قال اللهُ تعالى: «**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ؛ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ؛ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ**

[36]يُقال له بطرس الرَّسول، فقد ادَّعى أنَّه رسولُ المسيح بعد وفاته.

[37]تيمور، كوجوك، المرجع السَّابق.

مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ؛ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ» (الأعراف، 7 / 6 – 9).

والنِّظامُ الثيوقراطيُّ يرى أنَّ ظُلمَ الظَّالم ليس من ذنبه، بل هو عقابٌ من الله تعالى للنَّاس ، مع أنَّ الله تعالى ينهى عن الظُّلم والرُّكون إلى الظَّالمين فيقول: «**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ» (هود ، 11 / 113).**

كما يجبُ مُساندةُ المظلوم ضدَّ الظَّالم. قال اللهُ تعالى: «**وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ؛ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (الشُّورى، 42 / 41، 42).**

والمشركُ هو الذي يقولُ إنَّ سلوكَه السَّيءَ لا يصدرُ إلَّا وفقاً لإرادة الله تعالى. قال اللهُ تعالى: «**وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» (النَّحل، 16 / 35).**

النِّظامُ الثيوقراطيُّ يُقرِّرُ الطَّاعةَ المطلقةَ للحُكَّام؛ لأنَّ طاعتَهم طاعةٌ لله تعالى، وقد اعتبرَ القرآنُ الكريمُ هذا من الشِّرك أيضاً؛ لأنَّ طاعةَ مَنْ يضعُ قانوناً يُخالفُ أحكامَ الله تعالى هي تأليهٌ له وإشراكٌ له مع الله تعالى، وقد عرفنا أنَّ الشِّركَ هو تقسيمُ ما يختصُّ به اللهُ تعالى من حُكمٍ أو صفةٍ بين الخلق، كما أنَّه ظُلمٌ لا يغفره اللهُ تعالى. قال اللهُ تعالى: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا» (النساء، 4 / 48).**

القواعدُ المُتعلِّقةُ بالإدارة :

إنَّ القواعدَ التي جاءَ بها القرآنُ الكريمُ في إدارة الدَّولة هي قواعدُ عالميَّةٌ، ولها مُبرِّرٌ في كلِّ النُّظُم، وغيابُها يؤدِّي إلى الاضطراب والفوضى، ومَنْ خالفَ تلك القواعدَ مُخالفةً صريحةً وقَعَ في الحرج، وكلُّ نظامٍ ينطلقُ من تلك القواعد في إدارة الدَّولة فهو نظامٌ مثاليٌّ يُوافقُ نجاحاً كبيراً . ونودُّ الآن الوقوفَ على بعض تلك القواعد بالمقارنة مع النِّظام الثيوقراطيِّ:

1. العدالة :

يأمُرُ القرآنُ الكريمُ بالعدالة المطلقة، لذا يجبُ على كلِّ حاكمٍ أن يكونَ عادلاً تجاه كلِّ فردٍ من أفراد المجتمع بغضِّ النَّظر عن دينه وقومه وعمره ووضعه الاجتماعي. قال اللهُ تعالى: «**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**» (**النحل، 16 / 90**).

أمَّا الثيوقراطيَّة فلا توجدُ فيها العدالةُ؛ لأنَّ الحاكِمَ العادِلَ يُمثِّلُ الإلهَ عندما يعدلُ في الرَّعيَّة، وكذلك الظَّالمُ المستبدُّ بعثَه اللهُ ليُعاقبَ النَّاسَ بسبب ذنوبهم، فالحديثُ عن العدل في مثل هذا النظام يكونُ لغواً.

2. الحُرِّيَّة :

اختيارُ الدِّين والاعتقاد بإرادةٍ حُرَّةٍ سُنَّةٌ من سُنن الله تعالى التي لا تبديل فيها، وهي معنى قول جميع الأنبياء لأقوامهم «**أنِ اعبدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرُه**». لأنَّ العبادةَ في اللُّغة تعني الطَّاعةَ وهي الانقيادُ وامتثالُ الأوامر.[38] أي لا تعبدوا إلَّا الله، وعلى هذا فإنَّ النِّظامَ الثيوقراطيَّ مُخالِفٌ تماماً لدعوة الأنبياء والمرسَلين؛ لأنَّه نظامٌ يأمُرُ النَّاسَ أن يكونوا عباداً للحُكَّام لا للهِ تعالى.

[38]لسان العرب لابن المنظور؛ والمفردات للراغب الأصفهاني مادة: عبد.

الأوَّل: حُرِّيَّةُ العقيدة والعبادة :

الإيمانُ هو جوهرُ الدِّين، وأصلُ الإيمان هو القَبولُ من صميم القلب، أي التَّصديق بالقلب، ولا يعلمُ ما في القلب من التَّصديق إلَّا اللهُ وصاحبُ هذا القلب، فقلبُ الإنسان حُرٌّ، فلا يُجبَرُ أحدٌ على قبول عقيدةٍ ما؛ لأنَّ الجبر على قبول العقيدة مُخالِفٌ للفِطرة. قال اللهُ تعالى: «**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**» (**البقرة، 2 / 256**).

وكذلك لا يُجبَرُ أحدٌ على العبادة؛ لأنَّها لا تصحُّ إلَّا بالنيَّة، وهي إصدارُ القرار من القلب في إجراء فعلٍ ما، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: "إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات". ولا يعرف الهدَف والقصدَ من العبادة إلا اللهُ تعالى وصاحبُ العبادة؛ فمن الممكن أن يُجبَرَ أحدٌ على إقامة الصَّلاة فيتظاهرُ مُصلِّياً بأن يركع ويسجد، ولكن إذا لم ينوِ الصَّلاةَ لم يكُنْ مُصلِّياً، ولا فائدةَ من ركوعه وسجوده.

ليست هناك من حاجةٍ لطقوسٍ مُعيَّنةٍ أو حفلةٍ تُعقدُ ليُصبحَ الشَّخصُ مُسلماً، يكفي أن يُؤمنَ بما يجبُ الإيمانُ به من القلب، أمَّا في الدِّيانة النَّصرانيَّة فيجبُ التعميدُ ليُصبحَ الشَّخصُ نصرانيَّاً، ومثلُ هذه الطُّقوس تجعلُ المنتسبين الجُدد تحت الوطأة الرُّوحيَّة لرجال الدِّين.

ليس من شأن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم عقدُ الحفلات لقبول النَّاس في الدِّين، وما عليه إلَّا أن يقومَ بدعوتهم وبعد ذلك فمَنْ شاءَ فليؤمِنْ ومَنْ شاءَ فليكفُر. قال اللهُ تعالى: «**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**» (**القصص، 28 / 56**).

الثَّاني: حُريَّةُ الإنسان في أن يعيش وفقَ اعتقاداته :

حُريَّةُ الاعتقاد لا تعني شيئاً في الحقيقة لأنَّها عملُ القلب الذي لا يُمكن السَّيطرةُ عليه، ولكن يُمكنُ القولُ بحريَّة الدِّين؛ لأنَّ ما يُفهَمُ من كلمة الدِّين هو جميعُ الأوامر والنَّواهي

ذات المصدر الدّينيّ، وبمعنىً أكثرِ وضوحاً هي حُريَّةُ الإنسان في أن يحيى حسبَ ما يعتقدُ، أي وفقَ إيمانه.

بناءً على هذا التَّصوُّر فلا بُدَّ أن تكونَ المواطنَةُ والعدالةُ هي ما يحكُم علاقةَ الدَّولة تجاه مواطنيها وليس الإنتماءَ الدّينيَّ أو الفكريَّ، وفي نظام الدَّولة عند المسلمين فقد عاشَ النَّاسُ حسب اعتقاداتهم المختلفة، ولم يكن هناك ثمَّة إهانةٌ أو تحقيرٌ لعقيدةٍ من العقائد أو لأصحابها الموجودين في الدَّولة، ونضربُ مثالاً على ذلك هو سماحُ الدَّولة العُثمانيَّة بفتح الخمَّارة وتربية الخنزير لغير المسلمين؛ لأنَّه ليس إثماً في دينهم، بينما كان ممنوعاً على المسلمين، وفي ظلِّ هذا الفهم قبلتِ الدَّولةُ العُثمانيَّةُ اليهودَ الذين جاؤوا من إسبانيا هاربين، ووفَّرتْ لهم إمكانيَّةَ العيش في سلمٍ وطُمأنينةٍ، وقد أسَّسوا في تركيا جمعيَّةً خيريَّةً كذكرى لذلك وسمَّوها "وقف السَّنة 500 الميلاديَّة".

3. إعمالُ العقل :

يتميَّزُ الإنسانُ عن الحيوان بعقله وبقدرته على فعل الخيرات، إلَّا أنْ يتَّبعَ شهواتِه؛ فاتّباعُ الشَّهوات يُغيّرُ فهمَه وتفكيرَه ونظرتَه إلى الأشياء، لذا أكثَرَ القرآنُ الكريمُ الدَّعوةَ إلى إعمال العقل، ولم ترِدْ كلمةُ "العقل" في القرآن الكريم، ولكن وردتْ أفعالٌ مُشتقَّةٌ منها 48 مرَّةً، وكلُّها تُفيدُ إعمالَ العقل. منها قوله تعالى: «**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**» (**يونس، 10 / 100**).

وقد وردتْ كلمةُ "الفؤاد" مع مُشتقَّاتها 16 مرَّة، وكلمة "ألباب" جمع "لب" مع مُشتقَّاتها 16 مرَّةً كذلك، وكلمة "اللُّب" تعني العقل الخالصَ من الشَّوائب دون غيره؛ لأنَّ أسيرَ شهواته وأمنياته _في الحقيقة_ يملكُ عقلاً، ولكنَّه لا يستطيعُ إعمالَه بشكلٍ صحيحٍ، حتَّى لو أعمَلَه لمْ يرضَ بالنتيجة، فعقلُه ليسَ خالصاً من الشَّوائب، ولإعمال العقل بشكلٍ صحيحٍ فلا بُدَّ من التخلُّصِ أوَّلاً من قيد الرَّغبات وأسر الشَّهوات.

والنِّظام الثُّيوقراطيُّ يُريد من المواطنين عدمَ إعمال عقولهم بتدخلُّهم في شؤون الدَّولة كما نرى ذلك واضحاً في قول جون كالفين: "إذا كان في النِّظام العامّ ما يلزمُ إصلاحُه، فصاحبُ السُّلطة الوحيدة في هذا المجال هو الحاكمُ وحده، ولا ينبغي لأحدٍ من أفراد

المجتمع أن يتدخَّلَ فيما ليس من شأنه فيُحدِثَ الاضطرابات، أعني أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أن يقومَ بعملٍ إلَّا إذا أُمِرَ به؛ فإنْ أَمرَه الحاكمُ أصبحَ مسؤولاً مُصرَّحاً له من قبل السُّلطة العامَّة، والحكَّامُ الذين يحكمون وفقاً للمصلحة العامَّ يُمثّلون حقيقةً سيادةَ الإله".

أمَّا القُرآنُ الكريمُ فالدَّعوةُ فيه واضحةٌ بأن يهتمَّ كلُّ واحدٍ من أفراد المجتمع بما يحدثُ حولَه وأن يقومَ بالإصلاح، وقد صرَّحَ أنَّ السُّكوتَ عن الخطأ يُوجِبُ اللَّعنةَ كما قالَ اللهُ تعالى: **«لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ؛ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (المائدة، 5 / 78، 79)**. وقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ رأى منكم مُنكراً فليُغيِّرْه بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان».[39]

4. الخوفُ من الله وحده :

قال اللهُ تعالى: **«إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» (المائدة، 5 / 44)**. **«أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (التوبة، 9 / 13)**.

أمَّا في النِّظام الدِّيموقراطيّ فإنَّ الخوفَ من الحُكَّام واجبٌ كالخوف من الله تعالى، يقولُ جون كالفين: "والذي لا يقبلُ سُلطةَ الحاكم الذي هو أبو الدَّولة وراعي الشَّعب وحامي السِّلم ورئيسُ العدالة ومحامي الأبرياء يُعتبَرُ مجنوناً".[40] فقد اعتبرَ عدمَ قبول سُلطة الحاكم بشكلٍ مُطلقٍ ضرباً من الجنون !

---

[39] صحيح مسلم، باب الإيمان 78 / 49.

[40] جون كالفين، تاريخ الأفكار السِّياسيَّة في الغرب، ص. 49

5. الوقوفُ ضدَّ الخطأ :

قال اللهُ تعالى: «**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**» (**النساء، 3 / 104**).

ونضربُ فرعونَ مصرَ مثالاً على الحاكم المستبدِّ الظَّالم، فقد أنشَأَ مملكةً قويَّةً، واستخفَّ قومَه فأطاعوه، واستعبدَهم تبعاً لذلك، وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى أمرَ فرعون وما كان عليه من طُغيانٍ وضلالٍ، فقال: «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ؛ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ**» (**هود، 11 / 96–97**). والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُعلِّمُ أصحابَه عدمَ الرُّضوخ للحكَّام الظَّالمين، بل يجبُ جهادُهم بكلمة الحقِّ حتَّى يعودوا للرُّشد، فقد رُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وقد وَضَعَ رجلَه في الغرز: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «كلمةُ حقٍّ عند سُلطانٍ جائرٍ».[41]

أمَّا النِّظامُ الثُّيوقراطيُّ فقد ذهَبَ إلى تقديس ظُلم الحُكَّام بالزعم أنَّه من الله تعالى ليُعاقبَ النَّاسَ على ذنوبهم، وهذا النِّظامُ يَعتبِرُ قولَ كلمة الحقِّ عند سُلطانٍ جائرٍ إثماً لأنَّ الثيوقراطيَّةَ ترى أنَّ الحاكمَ على صوابٍ في كلِّ ما يفعل، فلا يجوزُ الخروجُ عليه. يقول جون كالفين: "وجميعُ الحُكَّام مهما كانت طبائعُهم يستحقُّون هذا التَّعظيمَ والاحترامَ والولاء (ولاء التَّديُّن)... وربَّما تقول: نفهمُ ممَّا سَبَقَ أنَّ التَّعظيمَ والاحترامَ لمنْ يعدِلُ من الحُكَّام؛ ولكنَّكَ مخطئٌ في كلامك؛ ذلك لو أنَّا لاقينا الاضطهادَ من الظَّالم، أو نَهَبَ أموالَنا المترفون الجشعون أو أهملَنَا الكُسالى من الحُكَّام أو أُوذينا من وُلاة العهد مع أنَّنا أبرياءٌ فلنتذكَّرْ أنَّ كلَّ ذلك بسبب ذنوبنا؛ لأنَّه لا شكَّ أنَّ الإلهَ أرادَ أن يُعاقبَنا بسبب سيِّئاتنا تلك، وإيمانُنا بهذا الفكر يجعلُنا نصبرُ على طاعة الملوك بالرَّغم من إيذائهم إيَّانا، وإذا علِمنَا أنَّ إصلاحَ تلك السَّيئات ليسَ واجباً ، فما علينا إلَّا أن نستعينَ بالإله الذي بيده قلوبُ جميع الملوك".[42]

---

[41] سُنن النسائي، باب من تكلَّمَ بالحق.

[42] جون كالفين، تاريخ الأفكار السِّياسيَّة في الغرب، ص. 51

وما عرفناه من تعاليم القُرآن الكريم أنَّ كونَ الشَّخص في مقام الحُكم لا يعني ذلك أنَّه معصومٌ أو أنَّ سلوكَه سيكونُ حتماً موافقاً للمبادئ التي جاء بها القرآنُ الكريم. بل إنَّ المخطِئَ يلقى جزاءَه من أيِّ صنفٍ كان. وقد حكى لنا القرآنُ حالَ فرعون مع قومه وموقفَ موسى عليه السَّلام من ذلك: «**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ؛ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**» (**الزخرف، 43 / 51، 52**)؛ «**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ؛ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ**» (**غافر، 40 / 26، 27**).

لقد قامَ موسى عليه السَّلام بإنذار فرعون بما أوحى اللهُ إليه، ولكنَّ فرعونَ ازدادَ طُغياناً، وهذا يدُلُّ على وجوب العمل لمنع الظُّلم بقدر الإمكان بعيداً عن التَّحريض السِّياسيِّ، ولكنَّ النِّظامَ الثيوقراطيَّ لا يقبلُ بهذا.

نظرةُ المذاهب الشِّيعيَّة والطُّرق الصُّوفيَّة إلى رئاسة الدَّولة :

تحدَّثنا سابقاً عن آراء مذاهب أهل السُّنَّة، ونتناولُ هنا وجهةَ نظر المذاهب الشِّيعيَّة والطُّرقِ الصُّوفيَّة في الإمام أي رئيس الدَّولة.

كما نعلمُ فإنَّ أكثرَ المذاهب إنتشاراً في إيران هو المذهبُ الإماميُّ، وهو المذهبُ الأكثرُ أتباعاً من بين المذاهب الشِّيعيَّة، وتُعتبرُ إيرانُ مركزَ الثقل لهذا المذهب لذلك سنضربُ المثلَ بها.

1. الجمهورية الإسلاميَّة الإيرانيَّة :

المذهبُ الحاكمُ في إيران هو المذهبُ الشِّيعيُّ، وقد كان منشأُ هذا المذهب ناتجاً عن الخلاف في موضوع رئاسة الدَّولة، فالرَّأيُ السَّائدُ عندهم أنَّ الإمام _أي رئيسَ الدَّولة_ لا بُدَّ من أن يُعيَّن من قبل النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأن يكونَ معصوماً من جميع الذُّنوب.

وقد اتَّفقَ الشَّيعةُ على أنَّ هذا الشَّخصَ هو عليٌّ رضي الله عنه، وبناءً على هذا فإنَّ رئاسة الدَّولة عندهم ليست وظيفةً سياسيَّةً بل هي مقامٌ دينيٌّ. وإليكَ رأيهم في الإمام أي رئيس الدَّولة:

"إنَّ الإمامةَ لا تكونُ إلَّا بالنصِّ من الله تعالى على لسان النَّبيِّ أو لسان الإمام الذي قبله، وليست هي بالاختيار والانتخاب من النَّاس، فليس لهم إذا شاؤوا أن يُنصِّبوا أحداً نصَّبوه، وإذا شاؤوا أن يُعيِّنوا إماماً لهم عيَّنوه."[43]

"إنَّ الإمامَ كالنَّبيِّ يجبُ أن يكونَ معصوماً من جميع الرَّذائل والفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَن، من سنِّ الطُّفولة إلى الموت، عمداً وسهواً، كما يجب أن يكونَ معصوماً من السهو والخطأ والنِّسيان، لأنَّ الأئمَّةَ حفَظَةُ الشَّرع والقوَّامون عليه حالُهم في ذلك حالُ النَّبيِّ،

[43] العقائد الإماميَّة، محمد رضا المظفر، ص. 65.

والدَّليل الذي اقتضانا أن نعتقدَ بعصمة الأنبياء هو نفسُه الذي يقتضينا أن نعتقدَ بعصمة الأئمَّة بلا فرقٍ."[44]

ويُعبِّرُ الشِّيعةُ في إيران عن صِفات الإمام ومعارفِه على النحو التَّالي:

"إنَّ الإمامَ كالنَّبيِّ يجبُ أن يكونَ أفضلَ النَّاس في صفات الكمال من شجاعةٍ وكرمٍ وعفَّةٍ وصدقٍ وعدلٍ، ومن تدبيرٍ وعقلٍ وحكمةٍ وخلقٍ، والدَّليلُ في النَّبيِّ هو نفسُه الدَّليلُ في الإمام . أمَّا علمُه فهو يتلقَّى المعارفَ والأحكامَ الإلهيَّةَ وجميعَ المعلومات من طريق النَّبيِّ أو الإمام من قبله، وإذا استجدَّ شيءٌ لا بُدَّ أن يَعلَمَه من طريق الإلهام بالقوَّة القدسيَّة التي أودَعَها اللهُ تعالى فيه، فإن توجَّهَ إلى شيءٍ وشاء أن يعلَمَه على وجهه الحقيقيِّ، لا يُخطئُ فيه ولا يشتبه، ولا يحتاج في كلِّ ذلك إلى البراهين العقليَّةِ ولا إلى تلقينات المعلِّمين، وإن كان علمُه قابلاً للزيادة والاشتداد. رغم أنَّهم لم يتربَّوا على أحدٍ، ولم يتعلَّموا على يد مُعلِّمٍ من مبدأ طفولتهم إلى سنِّ الرُّشد، حتَّى القراءة والكتابة، ولم يثبتْ عن أحدهم أنَّه دَخَلَ الكتاتيبَ أو تتلمذَ على يد أستاذ في شيءٍ من الأشياء، فإنَّ لهم منزلةً علميَّةً لا تُجارى، وما سُئِلوا عن شيءٍ إلَّا أجابوا عليه في وقتِه، ولم تمرَّ على ألسنتِهم كلمةُ (لا أدري)، ولا يُؤجِّلون الجوابَ من أجل المراجعة أو التأمُّل أو نحو ذلك."[45]

أمَّا عقيدةُ الشِّيعة في طاعة الإمام فهي كالتَّالي:

"إنّ أمرَهم أمرُ الله تعالى، ونهيَهم نهيُه، وطاعتَهم طاعتُه، ومعصيتَهم معصيتُه، ووليَّهم وليُّه، وعدوَّهم عدوُّه، ولا يجوز الرّدُّ عليهم، والرَّادُّ عليهم كالرَّادِّ على الرَّسول والرَّادُّ على الرَّسول كالرَّادِّ على الله تعالى، فيجبُ التَّسليمُ لهم والانقيادُ لأمرهم والأخذُ بقولهم."[46]

إنّ هذا الرأي ينطبق تماما مع الثيوقراطية، فلا يمكن أن يقبل عند أهل السنة والجماعة؛ لأنه لا يوجد آية ولا حديث تنص على ذلك. وما يقول الشيعة في حق أئمتهم لا يقوله أهل السنة والجماعة في حق الأنبياء عليهم السلام. لأنهم بشر مثلنا. والفرق الوحيد أنهم

---

[44] العقائد الإماميَّة، محمد رضا المظفر، ص. 66.

[45] العقائد الإماميَّة، محمد رضا المظفر، ص. 66.

[46] العقائد الإماميَّة، محمد رضا المظفر، ص. 66.

رسل الله. قال الله تعالى في حق محمد صلى الله عليه وسلم: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» (الكهف، 18 / 110).

ويرى أهلُ السُّنَّة أنَّ رئاسةَ الدَّولة مقامٌ سياسيٌّ، لذا لم يسمُّوا الدَّولة بالدَّولة الإسلاميَّة، بل سمَّوها بالدَّولة العبَّاسيَّة والدَّولة السَّلجوقيَّة والدَّولة العثمانيَّة. وفي عهد الخُلفاء الرَّاشدين لم يكنْ للدَّولةِ اسمٌ، وإذا دلَّ هذا على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على أنَّ تسميةَ الدَّولة بالدَّولة الإسلاميَّة ليست من الدِّين، ومن الخطأ البيِّن اعتبارُ الشِّيعة مثلَ أهل السُّنَّة والجماعة في النَّظرة إلى الدَّولة ورئيسها مع وجود هذا الفرق الشَّاسع، ومَنْ لا يعرفُ هذا الفرقَ في تركيا فإنَّه يدعو إلى إقامة دولةٍ إسلاميَّةٍ مثل إيران !

خَطَبَ عمرُ بنُ الخَطَّاب – رضي الله عنه – على المنبر فقال: "يا أيُّها النَّاس إنَّ الرَّأيَ إنَّما كان من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مُصيباً، إنَّ اللهَ كان يُريه، وإنَّما هو منَّا الظَّنُّ والتَّكلُّفُ". وقد نزلتْ بأبي بكرَ قضيَّةٌ فلم يجدْ في كتاب الله منها أصلاً ولا في السُّنَّة أثراً، فاجتهدَ برأيه ثمَّ قال: "هذا رأيي، فإنْ يكُنْ صواباً فمن الله، وإنْ يكُنْ خطأً فمنّي وأستغفرُ الله".

وعن عُمرَ أنَّه لقيَ رجلاً فقالَ له : "ما صنعتَ؟ قال الرَّجلُ: قضى عليٌّ وزيدٌ بكذا، قال: لو كنتُ أنا لَقضيتُ بكذا. قال: فما مَنَعَكَ والأمرُ إليك؟ قال: لو كنتُ أردُّكَ إلى كتاب الله أو إلى سُنَّة نبيّه – صلى الله عليه وسلم – لَفعلتُ، ولكنّي أردُّكَ إلى رأيٍ، والرَّأيُ مُشترَكٌ". فلم ينقضْ ما قاله عليٌّ وزيدٌ.[47]

2. الطُّرق الصُّوفيَّة :

الطُّرقُ الصُّوفيَّةُ هي مجموعاتٌ مُنظَّمةٌ تمتلكُ التَّكايا والزَّوايا، ولكلِّ مجموعةٍ منها زعيمٌ روحيٌّ يُسمَّى بشيخ الجماعة، يرى المتصوِّفون أنَّ الشَّيخَ وسيطةٌ بين الله وبين العباد، وبابٌ

[47] إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين (1/ 43)

من أبواب الله تعالى.[48] ويتمُّ الانتسابُ إلى الطَّريقة الصُّوفيَّة بـ "البَيْعة". فيكونُ الشَّيخُ قد تكفَّلَ المريدَ في سبيل الله.

إنَّهم يرون أنَّه لا خلاصَ إلَّا بالانتساب إلى إحدى الطُّرق الصُّوفيَّة.[49] والشَّيخُ هو وكيلُ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم[50] ومعصومٌ[51] والأبُ الرُّوحانيُّ للمُريدين.[52]

وهذه الآراءُ تُخالفُ القُرآنَ الكريم، فالطُّرقُ الصُّوفيَّةُ قد تشكَّلتْ بعيداً عن القرآن، وهي التي مهَّدتِ الطَّريقَ نحو الثيوقراطيَّة، تماماً كما فعلتْ الكنائسُ التي بنتْ عقائدَها وأفكارَها بعيداً عن الإنجيل الحقيقيّ. لقد كانتِ الأفكارُ الصُّوفيَّةُ مُتداولةً بين الصُّوفييّن عبر العصور، أمَّا اليوم فقد تسرَّبتْ أفكارُهم لتُحيطَ جميعَ الأوساط الإسلاميَّة.

وبالرَّغم من كون الطُّرق الصُّوفيَّة جماعاتٍ مُنظَّمةً إلَّا أنَّها لم تبلغْ درجةَ الكنيسة، كما لم تكن هناك دولةٌ قد دخلتْ تحت أمر شيخٍ من شُيوخ الطُّرق الصُّوفيَّة ولن يكونَ ذلك ما دام القرآنُ الكريمُ بين أيدينا وفي حياتنا.

هناك مآخذُ كثيرةٌ على الطُّرق الصُّوفيَّة سواءً في الاعتقاد أو العبادة، لكنَّها ستزولُ إذا قامَ المسلمون بتعلُّم دينهم على ضَوْء القرآن الكريم بعيداً عمَّا ورثوه من آبائهم.

---

[48] انظر: الأخلاق الصوفيَّة، لكودكو، إستانبول، 1982 د. 2 / ص. 183-185.

[49] انظر: الأخلاق الصوفيَّة، لكودكو، إستانبول، 1982 د. 2 / ص. 183.

[50] الأسئلة والأجوبة في التصوُّف الإسلامي، لحسن يلماز، إستانبول، 1986. ص. 494.

[51] انظر: الأخلاق الصوفيَّة، لكودكو، إستانبول، 1982 د. 2 / ص. 5.

[52] انظر: الأخلاق الصوفيَّة، لكودكو، إستانبول، 1982 د. 2 / ص. 247.

المساجد والثيوقراطية :

لا يوجدُ في الإسلام رهبنةٌ، وليست المساجدُ مثلَ الكنائس المنظَّمة، قديماً لم يكنْ في المساجد إمامٌ موظَّفٌ ولا مُؤذِّنٌ، فقد كان يُؤذِّنُ للصَّلاة مَنْ يُمكنُه ذلك، ويؤمُّ الجماعةَ شخصٌ أهلٌ للإمامةِ من الحاضرين، وكذلك الحالُ في صلاة الجمعة، إلَّا أنَّها تختلفُ عن بقيَّة الصَّلوات لاجتماعِ عددٍ كبيرٍ من المصلِّين، وحتَّى لا تُصبحَ خُطبةُ الجُمعة محلَّاً للتنافس على القيادة والتأثير، اشتَرَطَ المذهبُ الحنفيُّ تفويضَ السُّلطان كشرطٍ في إقامة الجُمعة لتجنُّب فتنةٍ قد تحدث، ولما تقدَّمَ الزَّمانُ تمَّ إحداثُ توظيفِ الأئمَّة والمؤذنين والقيِّمين، وذلك لغرض رفع الأذان للصَّلوات في أوقاتِها المحدَّدةِ وصيانة المساجد وحماية ما فيها من الأغراض والمحافظة على نظافتها.

الإنسانُ لا يحتاجُ إلى مؤسَّسةٍ دينيَّةٍ لتقبَلَ إسلامَه أو تُصادقَ على أنَّه أصبَح مسلماً، لأنَّه حُرٌّ في قبول الإسلام أو رفضه، كما أنَّه ليس بحاجةٍ إلى احتفالٍ بمناسبة إسلامه كاحتفال التَّعميد في الدِّيانة النَّصرانيَّة، ذلك أنَّه لا يوجدُ في الإسلام مَنْ ينوبُ عن الله تعالى، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى طريقةَ إسلام المرء، حيثُ لا يُمكنُ لأحدٍ التدخُّلُ في ذلك مهما كانت صفتُه؛ لأنَّ الدِّينَ هو الإيمان، وأصلُ الإيمان القبولُ من القلب أي التَّصديقُ بالقلب، ولا يَعرفُ ما في القلبِ إلَّا اللهُ تعالى وصاحبُ القلب.

كما نعلمُ فإنَّ الإنسانَ حُرٌّ فيما يعتقدُ بقلبه، وعلى ذلك لا يُمكنُ الإكراهُ في العقيدة. قالَ اللهُ تعالى في كتابه الكريم: « **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**» (**البقرة، 2 / 256**).

يُعتَبَرُ عُلماءُ الدِّين في الإسلام أهلَ اختصاصٍ بعلوم الدِّين، وليسوا زعماءَ روحانيِّين، وليس لهم أيُّ سُلطةٍ على عقائد النَّاس، فليسَ في الإسلامِ سُلطةٌ لمنظَّمةٍ دينيَّةٍ يرأسُها رجالُ دينٍ كحال الكنيسة في الدِّيانة النَّصرانيَّة.

العلمانيَّة :

العلمانيَّةُ لا تقبلُ أن تدخلَ الدَّولةُ تحت سيطرة المنظَّمات والمؤسَّسات الدِّينيَّة، وعلى هذا فالعلمانيَّةُ هي ضدُّ الثيوقراطيَّة.

ترى الكنيسةُ أنَّ لديها السُّلطةَ المطلقةَ في تعيين الملك والحكومة والحُكَّام وتوظيف الموظَّفين زعماً أنَّها تتصرَّفُ باسم الله.[53] وما تزالُ الكنيسةُ تحتفظُ ببعض هذه السُّلطة ولو بصورةٍ أقلَّ، حيثُ تستدعي الفائزين بانتخابات الرِّئاسة لأداءِ اليمين لديها.

إنَّ التَّاريخَ الفرنسيَّ مليءٌ بالنِّضال ضدَّ الكنيسة، وقد بدأتِ الجهودُ لكسر هيمنة الكنيسة على الدَّولة في القرن الرَّابع عشر.[54]

كان أوَّلُ ظهورٍ للعلمانيَّة في فرنسا، حيث أُطلِقَ مُصطلحُ العلمانيَّة على المؤسَّسات المستقلَّة عن هيمنة المنظَّمات الدِّينيَّة، وحين يُقالُ في هذا البلد المؤسَّسة الدِّينيَّة يُفهمُ منها الكنيسةُ الكاثوليكيَّة، فكُلُّ مؤسَّسةٍ ليستْ تحت سيطرة الكنيسة فهي علمانيَّة.[55]
فالعلمانيَّةُ ليست نضالاً ضدَّ المسيحيَّة بل هي نضالٌ ضدَّ الكنيسة، ولعلَّ المؤشِّرَ الأكبرَ إلى أنَّ العِلمانيَّةَ لم تكن ضدَّ الدِّين هو ما نصَّ عليه البندُ العاشرُ والحادي عشر من الميثاق المعلن لحقوق الإنسان والمواطن الذي أعدَّه أعضاءُ المجلس التأسيسيِّ في فرنسا عام 1789 م. وهما كما يلي:

البند العاشر: "لا يجبُ المساسُ بأيِّ شخصٍ بسبب آرائه، حتَّى ولو كانتْ دينيَّةً إذا لم يكن من شأن إظهارِها الإخلالُ بالنِّظام العامِّ وبالقانون."

البند الحادي عشر: "من أهمِّ حقوق الإنسان حريَّةُ تبليغ الأفكار والمعتقدات إلى الآخرين، فلكلِّ مواطنٍ حُريَّةُ الفكر والرَّأي والتَّعبير، بما في ذلك حريَّةُ الصَّحافة. علماً أنَّه يتحمَّل العواقبَ أمام القانون في حالة استعماله السَّيء لهذه الحُريَّة".[56]

---

[53] جوناي تومر، عبد الرحمن كوجوك، تاريخ الأديان، أنقرة، 1993. ص. 256

[54] موسوعة لاوروس الكبير، مادَّة: علمانيَّة

[55] موسوعة لاوروس الكبير، مادَّة: علمانيَّة

وقد أصبَحَ هذا الميثاقُ أوَّلَ جُزءٍ من الدُّستورِ الفرنسيّ الصَّادرِ عام 1791م، وكان من أهداف هذا الدُّستور إنهاءُ امتيازات الكنيسة الكاثوليكيَّة، والمساواةُ بين البروتستانتيَّة واليهوديَّة والعلمانيَّة (اللادينيَّة) بل وبينَ جميع الأديان باسم حُريَّة العقيدة[57] لأنَّ الكنيسةَ كانتْ لا تعترفُ بحقِّ الحياة لأصحاب الدِّيانات الأُخرى، ولو كان هذا نضالاً ضدَّ الدِّين لَمَا كان هناك ما يُسمَّى بالحريَّة الدِّينيَّة بعد نجاح العلمانيَّة.

كما نصَّ الإعلانُ العالميُّ لحقوق الإنسان الذي تبنَّتْه الأُممُ المتَّحدةُ سنة 1948م على أنَّ لكلِّ شخصٍ الحقُّ في حريَّة التَّفكير والاعتقاد والدِّين. وهكذا أقرَّ هذا الإعلانُ إنهاءَ هيمنة الكنيسة على الدَّولة، وهذا البندُ ليس ضدَّ الدِّين كذلك، وإنما هو ضدُّ الكنيسة، وهو لم يقمْ بتجريد الدِّين عن السَّاحة الاجتماعيَّة والحكوميَّة ولا عن غيرها من مجالات الحياة، لأنَّه لا يتصوَّرُ أحدٌ أن يتجرَّدَ الإنسانُ عن عقيدته في ساحةٍ من السَّاحات، إذ لا يُمكنُ للمُتديّن أن يترُكَ أوامرَ الدِّين ليأخُذَ أمرَ إنسانٍ آخر، ولو أُجبِرَ فإنَّه سيفعلُ ذلك إلَّا أنْ يُقاوِمَ سرَّاً أو علانيةً، وهذا _كما وَرَدَ في مُقدِّمة الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان والمواطن _ يؤدِّي إلى "شقاء المواطن وفساد الحكومات".

وقد وردَ في البند الثَّامن عشر من الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان ما يلي: " لكلِّ شخصٍ الحقُّ في حريَّة التَّفكير والاعتقاد والدِّين. ويشملُ هذا حقَّ حريَّة تغيير ديانته أو عقيدته، وحريَّة الإعراب عنهما بالتَّعليم والممارسة وإقامة الشَّعائر ومُراعاتها سواءً أكان ذلك سرَّاً أو جهراً، فرداً أو جماعةً".

بناءً على ما سَبَقَ فإنَّ العلمانيَّةَ ليستْ ضدَّ الدِّين، ولكنَّها _في الوقت نفسه_ لا تقبلُ أن تدخل الدَّولةُ تحت سيطرة المنظَّمات والمؤسَّسات الدِّينيَّة، أي أنَّ العلمانيَّةَ وصفٌ للدَّولة.

كما جاءَ البندُ الثَّاني من دستور الجمهوريَّة التركيَّة الذي صَدَرَ عام 1982م بهذا التَّعريف: " جمهورية تركيا، دولةٌ ديمقراطيَّةٌ علمانيَّةٌ واجتماعيَّةٌ يحكمُها القانونُ استناداً إلى المبادئ الأساسيَّة المبيَّنةِ في البداية والموالية لقوميَّة أتاتورك، تحترمُ حقوقَ الإنسان في سلامة المجتمع والتَّضامن الوطنيّ والعدالةِ الاجتماعيَّةِ".

---

[56] موسوعة لاوروس الكبير، مادَّة: إنسان

[57] م. سعيد خطيب أوغلو، مجلة الدِّراسة الإسلاميَّة، ج. 3 / العدد. 3. أنقرة 1989. ص. 102

والبندُ السَّادسُ والعشرون من الدُّستور يُعطي للمواطن حريَّة التَّعبير بكافَّة أشكاله، وقد صَدَرَ البندُ المذكورُ كالتَّالي: "ومن حقِّ كلِّ مواطنٍ أن يُعبِّرَ عن رأيه وقناعتِه عن طريق الحديث والكتابة والنَّشر والرَّسم وغيرها من طُرق إبداء الرَّأي".

وإذا وقَفنا على الموضوع من وجهة نظر القُرآن الكريم، نرى أنَّ الحُريَّة الدِّينيَّةَ من الثوابت التي لا تتغيَّر، فأصلُ الدِّين هو الإيمانُ وأساسُ الإيمان هو التَّصديقُ بالقلب، والقلبُ في جوف الإنسان حُرٌّ ولا يقبلُ الحَجْر عليه، ولا يُمكنُ لبشرٍ التدخُّلُ فيما يُؤمنُ به غيرُه، أي لا يُمكنُ الإكراهُ على قبول عقيدةٍ من العقائد، فضمانُ الحُريَّة الدِّينيَّة مذكورٌ في القُرآن الكريم. قال اللهُ تعالى: «**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**» (**يونس، 10 / 99**).

الخُلاصة :

ما صَلُحَ للاستدلال على الثيوقراطيَّة من التَّوراة وَرَدَ على لسان سُليمان عليه السَّلام، وبحسب التَّوراة الموجودة الآن فإنَّ سُليمان عليه السَّلام مَلِكٌ وليس رسولاً، ولكنَّ القُرآنَ الكريم يُخبرُنا أنَّ سُليمانَ عليه السَّلام كان نبيَّاً ورسولاً. والكلامُ المنسوبُ في التَّوراة إلى سُليمان عليه السَّلام هو كالتالي: "يَا ابْنِي، اخْشَ الرَّبَّ وَالْمَلِكَ. لاَ تُخَالِطِ الْمُتَقَلِّبِينَ".[58] ومن الممكن أنَّ المرادَ من خشية الملك هو الحذر منه بعد أن يتسلَّحَ المؤمنُ بتقوى الله تعالى في مُكافحة ظُلم الملك الطَّاغي. وقد وَرَدَ في القُرآن ما يشبهُ ذلك، حيث أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنين أن يستعينوا على كيد العدوِّ بالصَّبر والتَّقوى. فقال: «**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**» (**آل عمران، 3 / 120**). وكذلك قوله "لاَ تُخَالِطِ الْمُتَقَلِّبِينَ" يُرادُ به عدمُ مخالطة المفسدين.

أمَّا النُّصوصُ الواردةُ في الإنجيل، تحديداً في رسائل بولس وبطرس، فلا يعتبرها القرآنُ الكريمُ إنجيلاً؛ لأنَّ الإنجيل بحسب القرآن الكريم كتابُ الله تعالى الذي أُنزِلَ على رسوله عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام.[59] وهما أي بولس وبطرس مسيحيَّان اثنان من ضمن مسيحيِّين كُثُر، إلَّا أنَّ بطرسَ هو أحدُ الحواريِّين، وبولس ليس منهم حسب تعريف القرآن الكريم إيَّاهم، ولكنَّ المسيحيِّين يعتبرونَ الرَّجلين كليهما من الحواريِّين.

والحواريُّون في القرآن الكريم همُ الذين اتَّبعوا عيسى عليه السَّلام، فهم مثلُ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

إنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ كلامُ اللهِ تعالى الذي أُنزِلَ على أنبياء بني إسرائيل، كما أنَّ القرآنَ الكريم هو كتابُ الله المنزَّل على رسولِنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الكتابُ الذي لم يعتره

---

[58] سفر الأمثال، 24 / 22.

[59] قال اللهُ تعالى: «وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ» (المائدة، 5 / 46).

تبديلٌ ولا تحريفٌ، فقد تكفَّلَ اللهُ تعالى بحفظه إلى يوم القيامة. قال اللهُ تعالى: «**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**» (**الحجر، 15 / 9**).

ولكنَّ التوراة والأناجيل الموجودة اليوم اعتراها كثيرٌ من كلام النَّاس، والدَّليلُ على ذلك رسائلُ بولس وبطرس التي يُطلقُ عليها المسيحيُّون اسمَ الإنجيل.

أمَّا القُرآنُ الكريم فلمْ يدخلْ فيه شيءٌ من كلام النَّاس كما أسلفنا، وأقوالُ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قد دُوِّنتْ في كتب الحديث.

الحواريُّ هو مثلُ الصَّحابي كعليٍّ وأبي بكر رضي اللهُ عنهما، وأقوالُهم يُطلقُ عليها أقوالُ الصَّحابة، وأقوالُ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ليست في مرتبة القرآن، وكذلك أقوالُ الصَّحابة ليست بمرتبة أقوال النَّبيّ صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا فإنَّ رسائلَ بولس وبطرس ليست جزءاً من الإنجيل، وهي كلامُ النَّاس، وقد وَرَدَ فيهما أنَّ المسيحَ قامَ بعدَ ثلاثة أيَّامٍ من دفنه بعد أن صُلِبَ، ولَقِيَ حواريه الأحدَ عشر. والنصُّ كالتَّالي:" وأمَّا الأحدُ عشرَ تلميذاً فانطلقوا إلى الجليل إلى الجبل، حيثُ أمَرَهم يسوع، ولما رأوه سجدوا له، ولكنَّ بعضَهم قد شكى. فتقدَّمَ يسوعُ وكلَّمَهم قائلاً: دُفِعَ إليَّ كلُّ سُلطانٍ في السَّماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمِذوا جميعَ الأمم وعمِّدوهم باسم الأب والإبن والرُّوح القُدُس، وعلِّموهم أنْ يحفظوا جميعَ ما أوصيتُكم به.

وها أنا معكم كلَّ الأيام إلى انقضاء الدَّهر".[60] وهو ممَّا أدَّى إلى هيمنة الكنيسة على الدَّولة، حين كانت الكنيسةُ قويَّةً. وجاءَ في نفس الإنجيل: «كما أنَّ ابنَ الإنسان لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدِم، وليبذُلَ نفسَه فديةً عن كثيرين».[61] وهذا يتناقضُ مع التَّعبير السَّابق.

يُخبرُنا القرآنُ الكريمُ أنَّ بموت عيسى عليه السَّلام انقطعت علاقتُه بالحياة الدُّنيا فلا يعرفُ ما جرى فيها من الأحداث. قال اللهُ تعالى: «**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي**

[60] متى، الأصحاح الثامن والعشرون، 16-20.
[61] متى، الأصحاح العشرون، 28.

بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ؛ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (المائدة، 5 / 116– 117).

وأقوالُ عيسى عليه السَّلام ليستْ إنجيلاً، كما أنَّ أقوالَ رسولنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم ليستْ قُرآناً، سيَّما ما يُنسبُ إلى عيسى من أقوالٍ قالها بعد موته، فهي ليستْ من كلامه أصلاً، فضلاً عن أن تكونَ إنجيلاً !

نفهمُ ممَّا سَبَقَ أنَّ التّيوقراطيَّة قد أُسِّسَتْ على تلك الأقوال المزعومة ويظهر أنَّ الإنجيلَ الحقيقيَّ يرفضُ النِّظامَ الثيوقراطيَّ قطعيًّاً.

وقد أصبَحَ المذهبُ الشّيعيُّ الإماميُّ يدافعُ عمَّا يُشبه النِّظام الثيوقراطيَّ استناداً لما رُوِيَ عن كبار عُلمائِهم، تماماً كما أُسِّسَ النِّظامُ الثيوقراطيُّ في المسيحيَّة استناداً على رسائل بولس وبطرس.

صحيحٌ أنَّ الشّيعةَ لم يقولوا أنَّ أقوالَ أئمَّتهم ومجتهديهم هي كلامُ الله، ولكنَّ أكثرَهم يعتبرونها مثلَ كلام الله تعالى من حيثُ وجوب الأخذ بها، كما يظهرُ في العبارات التَّالية: "المجتهدُ الذي توفَّرتْ فيه شروطُ الاجتهاد هو نائبُ الإمام عليه السَّلام في فترة الغيبة (أي غياب الإمام)؛ وهو حاكمٌ ورئيسٌ على الإطلاق، يملكُ صلاحيَّة الإمام في القضاء والحُكم بين الناس. ورفضُ حُكمه هو رفضُ حكم الإمام. ورفضُ حكم الإمام هو رفضُ حُكم الله تعالى. وهو شركٌ بالله" على ما رُوِيَ عن صادقي آل محمد.[62] والمقصودُ بصادقي آل محمد، هم الرِّجالُ الصَّادقون من نَسَب محمد صلى الله عليه وسلم من جهة ابنته فاطمة رضي الله عنها (أي الأئمَّة)، وأقوالُ الأئمَّة عند الشّيعة كأقوال بولس وبطرس في المسيحيَّة. لكنَّنا لا نعتبرُ مثلَ هذا الكلام دليلاً حتَّى ولو كان قائلُه هو الحسن أو الحسين رضيَ الله عنهما، ولا يُعطي أهلُ السُّنَّة لأحدٍ من المجتهدين القدسيَّةَ ولا يعتبرُ كلامَ أحدٍ منهم واجبَ الاتباع.

---

[62] اعتقاد الشّيعة، ص. 24

يقولُ معنُ بنُ عيسى القزاز: سمعتُ مالكاً يقول: "إنَّما أنا بشرٌ أُخطِئُ وأُصيب، فانظروا في قولي، فكلُّ ما وافَقَ الكتابَ والسُّنَّة فخذوا به، وما لم يوافقِ الكتابَ والسُّنَّةَ فاتركوه". رضِيَ اللهُ عن أئمَّة الإسلام، وجزاهم عن نصيحتهم خيراً، ولقد امتثلَ وصيَّتَهم تلك وسلَكَ سبيلَهم أهلُ العلم والدِّين من أتباعهم.[63]

وكان مالكُ يُكثرُ من تكرار الآية الكريمة: «**إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**» (**الجاثية، 45 / 32**).[64]

وقد روى أبو يوسف والحسن بن زياد كلاهما عن أبي حنيفة أنَّه قال: عِلمُنا هذا رأيٌ، وهو أحسنُ ما قَدَرنا عليه، ومَنْ جاءَنَا بأحسنَ منه قبلناه منه.[65]

---

[63] إعلام الموقَّعين، لابن القيم، بيروت، 1987 / 1407 ص. 75

[64] إعلامُ الموقِّعين، لابن القيم، بيروت، 1987 / 1407 ص. 76

[65] إعلامُ الموقِّعين، لابن القيم، بيروت، 1987 / 1407 ص. 76

الخاتمة :

قد تبيَّنَ لنا ممَّا سَبَقَ أنَّ القُرآنَ الكريمَ لا يقبلُ النِّظامَ الثيوقراطيَّ ويعتبرُه شِركاً في نظر القُرآن الكريم، لأنَّ الثيوقراطيَّةَ تعني التصرُّفَ في الأمور نيابةً عن الله تعالى أو المشاركةَ معه في الحكم، هذا من ناحية؛ ومن ناحيةٍ أُخرى، فإنَّ الثيوقراطيَّةَ تُوجِبُ الطَّاعةَ للحُكَّام كطاعة اللهِ تعالى، أي أنَّ طاعةَ الحُكَّام هي طاعةٌ لله، وعصيانُ أوامرهم عصيانٌ لله تعالى، والقرآنُ يعتبرُ كلَّ هذه الادَّعاءاتِ شِركاً.

كما أنَّه لم يأتِ في القُرآن أيَّةُ وصيَّةٍ تتعلَّقُ بشؤون الدَّولة ونظامها، فعالميَّةُ الإسلام تتطلَّبُ ذلك، كما نجدُ ذلك في القرآن الكريم، حيث يطلبُ من الدَّولة تأمينَ المواطَنة للجميع فهي ليستْ مُختصَّةً بعرقٍ أو دينٍ، وقد بيَّنَّا بعضاً من مُقتضياتها فيما سبَقَ، ومنها القِيَمُ التي لا يُمكنُ أن يتنازلَ عنها قومٌ أو مجموعةٌ ما، ولا يحقُّ لأيّ إدارةٍ من الإدارات أن تتجاهلَ تلك القيم، وهذا ممَّا يدلُّ على أنَّ الإسلامَ دينٌ يمكنُ التَّعايشُ مع تعاليمه في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

ويُمكنُ تلخيصُ ما يطلبُه علماءُ الإسلام من القوى السِّياسيَّةِ بالتَّالي:

تقومُ القِوى السِّياسيَّةُ بتطبيق القوانين، وتنفيذ العقوبات، وتوفيرِ ما يحتاجُ إليه المجتمعُ، وتجهيزِ الجيش، وتحصيلِ الضَّرائب، ومكافحةِ ما يُفسِدُ أمنَ المجتمع. كما يجبُ على الدَّولةِ توفيرُ المناخ للمواطنين كي يعيشوا حسبَ مُعتقداتهم، وتأمينُ العدالة الاجتماعيَّةِ، وتحقيقُ الرَّفاهية الاجتماعيَّة بتوفير مجالات العمل لأبناء البلد.

وكذلك يجبُ على الدَّولة أخذُ التَّدابير اللازمةِ لحفظِ التَّوازن في توزيع الموارد الماليَّة، كما يجبُ أن تقومَ الدَّولةُ بحماية الأيتام ومُساعدة المساكين والفقراء وغيرِهم من المحتاجين.

وأخيراً يُمكنُنا قولُ مايلي: إنَّ العلمانيَّةَ اسمٌ للنِّضال ضدَّ الثيوقراطيَّة، والثيوقراطيَّة نظامٌ لا يقبلُه القُرآنُ الكريمُ كنظامٍ للدَّولة.

إنَّ النُّصوصَ التي اعتُبِرَتْ كأدلَّةٍ على الثيوقراطيَّة في بعض الأناجيل يجبُ أن تُدرَسَ على ضوء القرآن الكريم، سنرى حينها أنَّ تلك النُّصوص ليستْ من الإنجيل الذي أنزَلَه اللهُ تعالى على عيسى عليه السَّلام، وقد بيَّنَا ذلك سابقاً. ونفهمُ ممَّا سَبَقَ أنَّ الدِّينَ الذي جاء به عيسى عليه السَّلام لا يقبل الثيوقراطيَّة.